

الحرب الأهلية الأسبانية
1936 – 1939



زيجفريد كوكلفراننز

ترجمة : د. ضرغام الدباغ



الحرب الأهلية الأسبانية
1939 – 1936

زيجفريد كوكلفراننتز
ترجمة : د. ضغام الدباغ



الطبعة الثانية

المركز العربي الألماني / برلين

2020

المطبوع رقم 46

يوزع مجاناً

لوحة الغلاف: للرسم الألماني آرنورنك

" أسبانيا 1938 "

صدر هذا الكتاب في حلقات أربعة بمجلة دير شبيغل Der Spiegel الصادرة في جمهورية ألمانيا الاتحادية/ هامبورغ وذلك في أعدادها المرقمة 29-30-31-32 لشهر تموز/ 1986 ، وهي من أعداد وتأليف الكاتب في المجلة زيغفريد كوكلفراننتز Siegfried Kogelfranz بمناسبة مرور 50 عاماً على الحرب الأهلية الأسبانية بعنوان :

Sie werden gewinnen , aber nicht Siegen

" أنكم سوف تكسبون، ولكنكم لن تنتصروا "

فهرس

مقدمة المترجم

الفصل الأول :

التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي الحديث في أسبانيا - انفجار الأزمات السياسية - التمرد العسكري صفحه 7

الفصل الثاني :

معسكران في أسبانيا - ألمانيا وإيطاليا تدخلان في الحرب الأهلية - الفاشست يضغطون - الجمهورية تدافع عن نفسها.....صفحه 22

الفصل الثالث :

الجمهورية تستعيد التوازن العسكري - الألوية الأممية كعنصر فعال في القتال - الاتحاد السوفيتي يساعد الجمهورية.....صفحه 41

الفصل الرابع :

التناقضات الداخلية تضعف الجمهورية - المعارك الوحشية في المدن - الجمهورية تلفظ أنفاسها.....صفحه 50

بدلاً من الخاتمة : للمعرب.....صفحه 61

- ملحق (1) بيكاسو، ولوحته العائدة إلى أسبانيا..... للمعربصفحه 65
ملحق (2) لوركا، الشهيد البرئ للحرب الأهلية للمعربصفحه 67
ملحق (3) ماتشادو، شاعر أسبانيا العظيم يموت مشرداً. للمعرب.....صفحه 69
ملحق (4) لمن تقررع الأجراس، رواية أرنست همنغواي. للمعرب ... صفحه 71

مقدمة

نشر هذا الكتاب في مجلة دير شبيغل التي تصدر في مدينة هامبورغ بجمهورية ألمانيا الاتحادية في أربعة أجزاء طويلة. وإذا كان الكاتب زيفريد كوكلفرانتر، وهو من المحررين الأساسيين في المجلة غير معروف تماماً لقراء العربية، إلا أن المجلة ذاتها الصيت ليس في العالم العربي، بل في العالم أجمع، فهي مجلة أسبوعية سياسية بالدرجة الأولى (تتبع أسبوعياً أكثر من 4 ملايين عدد)، ولكنها أنها تغطي سائر الفعاليات الأخرى، بما يؤهلها حقاً مكانة رفيعة في أوساط السياسيين والدبلوماسيين، والمتقنين بصفة عامة وتوصف أبحاثها ومقالاتها بالرصانة والجدية.

وقد صدر هذا الكتاب في أعداد المجلة 29 - 30 - 31 - 32 لشهر تموز / 1986 بمناسبة مرور نصف قرن على اندلاع الحرب الأهلية الأسبانية، وقد منحها كاتبها عنواناً هو جزء من خطاب البروفسور أونا مونو " سوف تكسبون، ولكن لن تنتصروا "، ارتأيت تغييره إلى " الحرب الأهلية الأسبانية" والعنوان الجديد وإن كان أقل إثارة، بيد أنه أكثر دقة ومباشرة ودخولاً في الموضوع .

ومن الغريب أن لا تجد هذه الحرب مؤرخين وكتاب يوثقون مجرياتها ويحللون أحداثها بما تستحق من اهتمام، بما يبدو وكأن لجميع الأطراف المصلحة في إسدال الستار عليها. فأسبانيا فرانكو كانت قد حظرت (لا نعلم إن كان الحظر سارياً حتى الآن) الإطلاع على أرشيف وزارة الدفاع الأسبانية التي لا بد وأن تضم جزءاً أساسياً من تاريخ الحرب الأهلية، بل وكان حتى الحديث عنها من الممنوعات في عهد فرانكو. كذلك تجاهلها الفرنسيون المفترض عنايتهم بها بحكم الجوار، قدر المستطاع ربما لأبعاد شبهة أدانتهم بالتقصير إزاء حكومة الجمهورية، وكذلك الحكومة البريطانية التي كانت مواقفها المترددة والمتخاذلة إزاء جموح الهتلرية وتوسعها، فقد آثرت اتخاذ المواقف السلبية خشية إثارة غضب النازية الألمانية، وكانت أسبانيا الجمهورية ضحية لهذه السياسات.

الولايات المتحدة كانت بعيدة عن مسرح الأحداث السياسية الأوروبية ولم تكن تدعي زعامة أو قيادة العالم الرأسمالي، وهي بالتالي لم تكن معنية بتقرير شؤونه، كما لم يصلنا شئ مما نشر في الاتحاد السوفيتي عن الحرب الأهلية الذي كان الحليف الوحيد للجمهورية في المساندة الفعلية رغم البعد الجغرافي والتعقيدات السياسية التي تكتنف ميدان العلاقات بين الدول الأوروبية في عقد الثلاثينات الذي شهد أحداثاً جسيمة، اندلعت الحرب الثانية قبل انقضائها.

فالكتاب إذن نادر في موضوعه، بل نكاد نجزم أن المكتبة العربية تفتقر أشد الافتقار إلى تاريخ الحرب الأهلية الأسبانية، وتكاد أن لا تتجاوز معلومات القارئ العربي، وحتى المثقفين، معلومات مبتسرة جمعها من هنا وهناك، من مذكرات بعض السياسيين المعاصرين لها أو من تصريحات قادة الأحزاب، أو من الموسوعات التي تتناول عادة الأحداث بشكل مقتضب، أو من الروايات، أو حتى الأفلام السينمائية.

فقد كنا فتيحة عندما شاهدنا فلماً سينمائياً ملوناً جميلاً يحمل عنوان " لمن تقررع الأجراس" وهي رواية الكاتب الأمريكي أرنست همنغواي، التي قدمها عام 1943 المخرج سام وود إلى السينما، وهو من بطولة غاري كوبر وإنجريد برجمان، ولا بد من الاعتراف بأننا وبحكم

حادثة أعمارنا، أستحوذ جمال الطبيعة والمغامرة على اهتمامنا، أكثر من المحتوى السياسي للفلم الذي كان أساساً يعاني من الضعف، حتى أن كاتب الرواية نفسه أحتج على إخراج الفلم بطريقة أستبعد الجانب السياسي فيه تقريباً.

ثم أننا كنا شباناً أكثر نضجاً عندما قرأنا رواية " الأمل " للكاتب الفرنسي أندريه مالرو، الذي حملنا على التعاطف مع الجمهوريين (طبعاً)، لكن الرواية لم توضح لنا، وربما أن ذلك ليس من مهمتها، ما هي التطورات والتفاعلات السياسية التي أدت إلى الحرب الأهلية؟ كيف قامت الجمهورية؟ ولماذا سقطت؟ وعندما قرأنا أشعار ومسرحيات غرسيا لوركا، وأعجبنا بها، علمنا أنه شهيد الحرب الأهلية، ولما أخذنا بروعة لوحة "غورنيكا" للرسام المشهور بيكاسو، علمنا أنها ليست سوى قطرة في بحر الألم الأسباني. ثم أننا قرأنا بحزن موت شاعر أسبانيا العظيم أنطونيو متشادو مشرداً في طرقات المهجر والمنفى.

وللمعجبين بشعر ومسرح الكاتب الألماني برتولد برشت، سيدهشون إذ يقرأون واحدة من أجمل قصائده عن الحرب الأهلية الأسبانية، بل أن بطل المسرحية المشهورة "غاليلو غاليلي" التي قدمت على مسارح عالمية، ولم يكن سوى الممثل والمغني أرنست بوش عملاق المسرح الألماني، حامل جائزة لينين، كان الجندي المقاتل في الألوية الأممية دفاعاً عن الجمهورية الأسبانية. وهكذا تطرح الحرب الأهلية الأسبانية أسماء شخصيات سياسية عالمية، أعمال روائية مشهورة، شعراء أعمالهم وأسمائهم غير قابلة للنسيان، عظماء عصرهم من الرسامين، فلاسفة، قادة عسكريين: فيلي براندت، إيليا أهرنبرغ، أرنست همنغواي، أندريه مالرو، شاهبور باختيار، جورج أورل، الجنرال هاينز هوفمان.. وآخرون.

سؤال أطرحه على نفسي قبل الشروع بأي عمل، لماذا هذا الكتاب؟ إن العبرة في هذا العمل لا تكمن فقط في أنه يقدم للمكتبة والثقافة العربية موضوعاً هاماً لا يليق أن تفتقر إليه، ولا في أن يقدم للمثقف العربي إجابات على أسئلة يتعطش لمعرفة، كيف ولماذا اجتمعت كل تلك الشخصيات والأحداث... وليس ذلك فحسب، بل أن العبرة الرئيسية تكمن في تقديري أن أحداث الحرب الأهلية الأسبانية وما سبقها وما تلاها من تفاعلات سياسية هي جديرة كل الجدارة لأن يطلع القارئ العربي ويستخلص منها العبر، والمغزى التاريخي.

لقد عشنا، في جيلنا المعاصر أحداث حروب أهلية عديدة، وأكثر من ذلك فتن تجاوزها شعبنا بفظنته، وأخرى يجري أعدادها في مطابخ من يكن العداء لبلادنا العربية والإسلامية، حروب وصراعات أضرت بجميع أطرافها على حد السواء، ودمرت مصالحنا الوطنية، كان الموت هو الرابح الأعظم وقوى الأعداء التي تزين لنا الموت والدمار، وحسبنا أن شعبنا قد أدرك ذلك، وسيقف الموقف الحازم حيالها الآن وفي المستقبل.

الكتاب يطرح العبرة، أن إطلاق العنان للعنف الوحشي، وتحكيم وسائل الدمار في الخلافات السياسية، سوف لن يؤدي إلا إلى تقويض أركان البيت الذي يجمع شمل الجميع، فيدونه سيكون الجميع مشردون، وجياع. إن فكرة تصفية الخصوم السياسيين نهائياً هي فكرة خرافية، وإلا فأين فرانكو اليوم، أين هم محترفو القتل، إنهم يرقدون في قبورهم، والحياة فرضت إرادتها وقوانينها. وأسبانيا اليوم ترشح وتنتخب وتنتخب. ودماء مئات الألوف من الأسبان الذين فقدوا حياتهم في الحرب الأهلية... لماذا؟ مئات الألوف من الأرامل والأيتام من الذين لم ينعموا بأحضان آبائهم... لماذا؟ هل جرى كل ذلك ليبقى فرانكو في الحكم خمسة وثلاثين عاماً، فإسبانيا في عهده لم يكن لها نظام، لا ملكياً ولا جمهورياً، رأسمالياً كان أم اشتراكياً، ولا أي شيء آخر، كان نظاماً فرانكويّاً فحسب..!

اليوم أسبانيا لا غالب ولا مغلوب. هكذا الأمر في الحروب الأهلية غالباً. الملك خوان كارلوس يملك ولا يحكم، الاشتراكيون من أبناء أو أحفاد القائد الاشتراكي كابا ليرو، فازوا في الانتخابات، والشيوخيون في البرلمان... ولو كانت للقبور قدرة الكلام لقلت " ليتكم فعلتم هذا قبل 50 عاماً " .

إنني أثق بأن الكتاب سيزيد حكمة القارئ حكمه، أو ليس التاريخ أفضل معلم للأجيال، وهو ما دفعني لتحمل عناء ترجمة هذا الكتاب، بل إنني عشت مرحلة أسبانية، إذ أعدت قراءة : رواية "الأمل" لأندرية مالرو، ولمن تفرع الأجراس "أرنست همنغواي، وأشعار أنطونيو ماتشادو، شعر ومسرحيات لوركا، وأسبانيا غداً، والشيوخية الأوربية لسنتياغو كاريلو، الفوضويون لهنري آرفون، مطالعة حياة وأعمال الرسام بابلو بيكاسو وحياة وأعمال الرسام فرانسيسكو غويا، أشعار رفائيل البرتي، فقد كنت أرغب في الإطلاع الشامل على جذور الحقد الذي أطلق هذا الانفجار الدموي العنيف، وأعاد صياغة وفهم الأشياء بطريقة متسلسلة وموضوعية.

وهذا العمل الذي أقدمه اليوم إلى القارئ العربي، هو حصيلة لتلك التجارب التي حدثت في بلاد بعيدة عنا... وقريبة في نفس الوقت، بعيدة إذ تقع في قارة أخرى، وقريبة لأن للعرب ذكريات 400 سنة أندلسية لا يمكن محوها من الذاكرة والتاريخ، فما زالت ثيابنا تفوح منها رائحة تفاح بساتين غرناطة. وقريبة لأن أسبانيا ما زالت تحتل مدناً عربية (سبته ومليله).

ثم أن عرباً ناضلوا إلى جانب الجمهورية، ولكن فرانكو استطاع أيضاً أن يجند للأسف عرباً من المناطق العربية المغربية المحتلة الواقعة تحت الاستعمار الأسباني، استطاع أن يجندهم في القتال وهو ما جرى التركيز عليه في وسائل أعلام غير منصفه، وصوروا كبرابرة قساة. ولكن أحداً من هؤلاء لم يشر إلى أن البربرية الكاملة والقسوة الأمثل هي أن هؤلاء المجندين اقتيدوا قهراً إلى بلاد غريبة ليسفكوا دمائهم في حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل، فالجمل والناقة إنما تعانيان الظلم والقهر والاستعباد والاستعمار في وطنهم، مراكش، التي مزقتها الحروب العدوانية، وأثخنها جراحاً. تلك هي القسوة الحقيقية، والبربرية الحقة، وذلك ما يستحق الإشارة إليه، وتسجيله بوضوح تام.

أن نعلم وأن نتعلم أمر ضروري... ولكن ليس متأخراً!!

ضرغام

أكتوبر - تشرين الأول / 1986

بغداد

الفصل الأول

التطور السياسي والاجتماعي الحديث في أسبانيا
انفجار الأزمات السياسية
التمرد العسكري

أدن مني وأسمع ندائي
يا شعباً روته نفس الصدور
يا شجرة شدتني إليك الجذور
منذ أقدم العصور أقف هنا للدفاع عنك ...
عنك أدفع كل الشرور
بأقوى سلاحين
الكلمة والدم الطهور
مايكل هيرماندز

هذه الأبيات كتبها مايكل هيرماندز Miguel Hermandey الشاعر والجندي في الكتيبة
الخامسة للجيش الشعبي، المكافح ضد الفاشية.
وكتب في صدر ديوانه الصادر عام 1937 ، "رياح الشعب" قائلاً :

نحن الذين ولدنا بين الناس شعراء
وأصبحنا بالحياة مع الناس ...
شعراء ...
الناس ينبوعنا
ومصدر إلهامنا الوحيد :
الأرض

ترجمة : د. غازي شريف

ثلاثة أشهر في زنزانة الموت ... ثلاثة أشهر، خوف من الموت وكل يوم منها كان يمكن أن يكون الأخير.

" في الساعة الثانية عشر أو الواحدة، كنا نسمع رنين الجرس الليلي. وكان ذلك يعني قدوم الكاهن مع مجموعة تنفيذ الإعدام الذين كانوا يأتون معاً دوماً. وبعد ذلك يبدأ فتح الأبواب وتقرع أجراس سيئو الحظ، ويبدأ الكاهن بتلاوة الصلاة والدعاء الديني.

نستمع إلى صوت أقدامهم، هاهي بالقرب من الممر .. تبتعد .. تقترب .. تبتعد مرة أخرى.. إنهم الآن يعودون مرة أخرى.. إنهم الآن عند الزنزانة المجاورة.. إنهم الآن في الجناح الآخر .. والآن يعودون مرة أخرى .. الأوضح من بينهم كان صوت الكاهن .. يا ألهي أرحم هذا الرجل .. أغفر له ذنوبه .. آمين .. ونعود لنضطجع على تخوتنا الخشبية وأسناننا تصطك ...

الثلاثاء على الأربعاء أعدم (رمياً بالرصاص) سبعة عشر، وفي الخميس على الجمعة أعدم ثمانية، والجمعة على السبت أعدم تسعة، والسبت على الأحد أعدم ثلاثة عشر، ستة أيام عليك فيها العمل، هكذا قال السيد المسيح، واليوم السابع هو السبت، لك الاستراحة والهدوء، ثم الأحد على الاثنين أعدم ثلاثة ... "

هكذا كتب آرثر كوستلر مراسل الصحيفة اللندنية نيوز كرونيكل الذي كان قد أرسل إلى أسبانيا ليغطي أحداث الحرب الأهلية، والذي سجن طويلاً في معتقلات سيفيليا بتهمة التجسس وحكم عليه بالموت، ولكن فرانكو أطلق سراحه بعد ثلاثة أشهر إذ لم يكن يريد أن يؤثر ذلك على علاقاته مع بريطانيا.

العاصمة الأسبانية مدريد - تموز / 1936

" برز رجل عملاق من الطابق فوقاني يرفع بيديه الضخمتين إلى الأعلى جندياً، كان يخبط بساقيه، وصرخ الرجل العملاق ... هاكم واحداً منهم ... وقذف بالجندي من الأعلى إلى الطابق الأسفل .. تقلب في الهواء كأنه لعبة من القماش وأرتطم بقوة على جانبه، ورفع العملاق ذراعيه إلى الأعلى وصاح: والآن جاء دور الثاني ..

وبمروري أثناء الخروج، ألقيت نظرة على صالة الأعلام، وكان بابها مفتوحاً ... وكانت مليئة بجثث الضباط القتلى، أحدهم مات وذراعه على الطاولة والآخر على أرضية الغرفة، والبعض الآخر كانوا شباناً في ريعان العمر، وفي الخارج كان المئات من الجثث ملقاة في الشمس الساطعة " .

هكذا كتب آرتورو باريا الموظف في إحدى دوائر الحكومة الجمهورية في مدريد عن هجوم الجماهير على إحدى ثكنات المتمردين المسماة مونتاننا.

وعن تقدير عدد الضباط الذين أعدموا في برشلونة، يروي السكرتير العام للجنة المضادة للفاشية في المدينة :

جاء بأربعة ضباط لإعدامهم. ثلاثة منهم وقفوا إزاء الجدار والآخر جلس على كرسي لأنه كان مصاباً بجراح بليغة. وفي اللحظة التي أعطى فيها قائد مفرزة الإعدام الأمر بإطلاق النار، هتف أحد المحكومين بالموت Viva Espana ... تحيا أسبانيا، فردت مفرزة الموت: لتحيا .. ولكن الطلقات قاطعت هذه الكلمة.

وكانت عناصر الميليشيا هي التي تتولى عملية إطلاق النار على المحكومين بالموت، ولما توقف الرمي، كان الضباط الأربعة مشوهين إلى درجة لا يمكن تمييزهم، فقد تمزقت أجسادهم وكان من العسير حمل الجثث إلى التوابيت لأنها كانت مهروسة تماماً "

وفي كيوداد، ألقى أحد غوغاء الجمهوريين ب 800 من جثث الفاشست في حفرة منجم. وفي غرناطة، أطلق المتمردون النار على 2137 من "الحرر" واغتصبت الراهبات وخنق الرهبان. وقد قام الجنود المغاربة الذين كانوا في عداد جيش فرانكو، ببتير الأعضاء التناسلية للرجال، كما أنهم اغتصبوا النساء قبل إعدامهن. (1)

وحشية .. كما لم يكتب عنها دانتى في الجحيم، أحداث لم يتصورها الرسام الأسباني الشهير فرانسيسكو دي غويا في رسومه عن فضائع الحروب، ولكنها حدثت في بلد يقع على حافة أوروبا، أحداث أفزعت أوروبا والعالم بأسره.

الحرب الأهلية الأسبانية التي شبت نيرانها في 18 / تموز / 1936 ، لم تهدم ما تم تشييده في قرن كامل فحسب، ولكنها أيضاً طبعت بطابعها جيلاً كاملاً في أوروبا من السياسيين والجنود والمتقنين والمثاليين.

والنخبة الممتازة من الشيوعيين استخدموا التأثير الخطابى المنبرى، والانبثاق الثوري للجمهورية، رجال أمثال بيكاسو، وجورج أرول (2) وكويستلر وهمنغواي، ومالرو، وأيليا أهرنبرغ، وكانتروفيتش، ونهرو، وبرشت، وبرنانورس، كتبوا ورسوموا أو قاتلوا من أجل أسبانيا.

وأكثر بكثير مما أهاجته حرب فيتنام في الأجيال (أعوام السبعينات)، أهاجت الحرب الأهلية الأسبانية في الضمائر والوعي، ولم يحدث لا من قبل ولا من بعد مثل هذا التضامن العفوي الذي تجاوز كل الحدود مثل الألوية الأممية التي وصل عدد المساهمين فيها إلى 60,000 متطوع من 60 بلداً وشعباً والذين ضحوا بحياتهم من أجل بلد غريب.

كان نزاعاً وحشياً على قيم ومعارف أساسية لهذا القرن، الطبقات والأيدولوجيات، الكنيسة، الفوضوية، الفاشية، الاشتراكية، والستالينية. هذه الموضوعات التي تطورت خلال قرن من الزمان، وواجه البعض منها الإدانة، والحق والكراهية والانتقام، ولكن أيضاً تقدير وتقييم السلطات، هذه جميعاً ثارت في أسبانيا قبل 50 عاماً في نزاع دموي.

ألمان يطلقون النار على ألمان في ساحات القتال، وإيطاليون يذبحون إيطاليون. وفي هذه الحرب أيضاً جرب أطرافها أسلحتهم في الساحة الأسبانية تحت أنظار الجميع.

ومثلما كانت الحرب في فيتنام أول حرب تلفزيون، حيث كانت شبكات التلفزيون تنقل وقائعها إلى مساكن الناس، كانت الحرب الأهلية الأسبانية أول حرب إذاعات ووسائل إعلام

في التاريخ التي كانت وقائعها تنقل من جبهات القتال والصور من خلال أشهر المراسلين في عصرهم إلى حيث كان الناس يطالعون تقاريرهم على مائدة الإفطار يومياً.

طرحت الحرب الأهلية الأسبانية وقادتها شعارات غريبة مثل " يحيا الموت " أو " يعيش الديناميت "، والثقافة والمثقفين كانوا يستحقون الموت ... هذا في جانب الفاشست، وعند الجمهوريين كانت كلمة الرب تعرض قائلها إلى الخطر، إذ أن الرب بالنسبة لهم غير موجود أو أنه يقف على الجانب الخاطئ.

لقد كتب الكثير عن هذه الحرب مثلما لم يكتب عن حروب مماثلة، ولكن على الرغم من ذلك، فما زال الكثيرون لا يعرفون الكثير عنها، بل ماذا تعرف الشبيبة الأسبانية عن تلك السنوات الضارية...؟

وبرغم أن الكثير من الأسر الأسبانية فقدت قتيلاً في هذه الحرب (عائلته من بين كل أربع عائلات) التي استمرت 978 يوماً، إلا أنهم (الأسبان) يفضلون إزاحة هذا الماضي المشئوم الذي ساهموا فيه بأنفسهم، فهم الذين عايشوا 34 انقلاب في المائة عام المنصرمة، وعاشوا أيضاً 36 عاماً تحت حكم الدكتاتورية الفظية للجنرال المنتصر فرانكو، وحسب رأي أحد سياسي مدريد البارزين، فإنه يمكن ويا للعجب تغيير ذاكرة الشعب، ونسيان جراح الماضي، وهكذا لم يكن الأبناء يودون معرفة ما فعله الآباء، أما في المدارس، فلا يتطرق أحد إلى الحرب الأهلية.

حتى في الكليات والجامعات والمؤرخين، يتعاملون بحذر شديد مع موضوعات الحرب الأهلية أما المعلومات الجديدة التي حصل عليها الطلاب والناشرين في مرحلة ما بعد فرانكو ونادراً ما طرحت عليهم، هي تلك التي عثر عليها بين الأطروحات العلمية، وهذا ما ذكره المؤرخ والدبلوماسي الأسباني أنجل فيناس في مؤلفه " مساعدة هتلر وموسوليني لفرانكو كعامل حاسم في الحرب " .

والقوات المسلحة الأسبانية من طرفها، قررت حظر الإطلاع على أرشيفها وملفاتها الخاصة بالحرب الأهلية الأسبانية التي لا بد وأنها تضم تفاصيل كثيرة عن دور الجيش. ولكن وبسبب عدم الرغبة في إثارة الألام وإسدال الستار على الأعمال اللاإنسانية التي حدثت قبل 50 عاماً، فقد أقفل عليها لتظل في طي الكتمان.

ولدى سؤال مدير أحد القصور في منطقة مانكا جنوب مدريد، التي تعرض سكانها إلى مذبحه وحشية في الأيام الأولى للحرب الأهلية، أجاب على هذا السؤال الذي يعيده إلى ذكريات مضى عليها 50 عاماً، أجاب: " في هذا القصر لا يمكن خرق الأنظمة " قال ذلك وترك الغرفة.

وعندما حاول مرة أحد محرري مجلة دبر شبيغل أن يسأل أحد عمال السخرة في الحرب الأهلية عن مشاهداته وذكرياته، وكانا في صالة الضيوف في الفندق، وإذا بشرطي يقتحم الحديث قائلاً: " أنكم تقومون بسؤال الناس، لأي غرض هذا ؟ وأضاف: أود أن ألفت انتباهكم أن هذا ممنوع."

حدث ذلك، عندما شيد المنتصر وبعنون عظمة فرعوني لنفسه ضريحاً ضخماً من الصخر يسمى اليوم: ضريح الأشباح، ومن خلال رموز ضخمة، الإيحاء، بأن المنتصر إنما يستمد

قوته من الله. فقد أشتغل عمال السخرة في وادي سير اكواداراما ليحفروا ضريح فرانكو: -
Santa cruz del Valle de los Caidos : الصليب المقدس لوادي الشهداء. والتي برغم
كل ما بذل فيها من فخامة وفخفة، فقد تحولت إلى قبر منسي وخارج التاريخ.

وكان بعض الأسبان، لاسيما ملاكي الأراضي، يحلمون بإعادة أسبانيا قوية وعظمية على
حساب شقاء فئات واسعة من الشعب التي كانت تعيش على أجرها اليومي في ظروف
وشروط إنتاج القرون الوسطى. وهكذا كان هناك في أسبانيان: أسبانيا الأثرياء وأصحاب
السلطة الطامحين إلى إعادة أسبانيا العظمية، وأسبانيا الغالبية الفقيرة التي كانت تريد تغيير
أوضاعها البائسة، لا سيما الطبقة العاملة التي لم تهدأ قط، والتي كانت تعيش أوضاعاً في
غاية التخلف والانحطاط.

ومع انتشار الأفكار الليبرالية التي كانت تسعى إلى اقتصاد ديناميكي والتي لاقت استحسان
الغالبية العظمى من الناس. وقد قاد التناقض بينها وبين الرجعية التي تعود عقليتها إلى
القرون الوسطى من جهة، والقوى الليبرالية والفئات المسحوقة إلى ما يزيد على 30
انقلاب عسكري وإلى حربين أهليتين.

وكتب المؤرخ والسياسي الأسباني أنطونيو كانوفاس دي كاستيلو عام 1876 عن فوضى
الدولة " أن التعب من القتال الذي دام عشرات السنين، قاد إلى الهدوء، وكان هناك حزبان
كبيران اللذان كانا يتناوبان على السلطة، الحزب الليبرالي وحزب المحافظين، وهناك
البرلمان والانتخابات المنتظمة التي كان الرجال القادرين على القراءة والكتابة المشاركة
فيها، بمعنى أنها لم تكن شاملة وتستثني الأميين والنساء.

ونتائج الانتخابات كانت تقرر سلفاً من الأعلى.. تجري المساومات وتدور بين الحزبين
الرئيسيين، الليبرالي والمحافظين، ومع النواب وكذلك نتيجة الانتخابات. وكانت هناك أنظمة
تحدد من سيشترك في الانتخابات التي كانت تعطى للوجهاء وهو ما كان يطلق عليه بكلمة
كاتسكين، (كلمة غريبة على اللغة الأسبانية، من الكلمات الهندية) وهم رؤساء القبائل وكان
هؤلاء، رؤساء القبائل والوجهاء، هم الذين يقررون من يمتلك الأراضي ومن يعمل في
التجارة في القرى والمدن الصغيرة وكانت رغباتهم الانتخابية بمثابة الأوامر وإذا حدث
(وذلك نادر الحدوث) أن بعض الأصوات قررت خلافاً لإرادتهم، فإن ذلك يقود إلى مشاكل
وإلى إعلان الطوارئ المقترن بالموت.

وهذا الصنف من الديمقراطية دام لما يقارب القرن ولم يكن النظام سائداً إلا بشكل ظاهري،
ولكن الأزمة كانت تختمر وقادت إلى الظلم وإلى التناقض الاجتماعي.

في الأندلس، تسيد عشرة آلاف من الأثرياء وكبار ملاكي الأراضي على ما يزيد على
المليون من مستأجري الأرض من الفلاحين الذين لا يمتلكونها. وعلى قمة الهرم في الأعلى،
كان هناك الدوقات الذين يمتلكون الكثير مثل دوق ميديناكيلي الذي كان يملك سبعة آلاف
وخمسمائة كيلو متر مربع. وكان يسكن هذه الأراضي 2,5 مليون من الفلاحين الذين
يشكلون مجتمعها المسحوق، ممن لا يمتلكون الأراضي ويعملون بالأجرة اليومية، وكان
يطلق عليهم براكيروس Braceros .

وبعد عام 1870 كان للبراكيروس حركتهم السياسية وبدأ التبشير بها. وكان رسل العقيدة
الجديدة يرتدون ثياباً مهلهلة، رثة، وجياح مثل سكان القرى أنفسهم، وكانوا يأتون مشياً على

الأقدام أو على البغال عبر الأرياف، وكانوا يعطون الأخوة بأن يساعد بعضهم بعضا واحترام حرية وحقوق الآخرين وإلى العمل المشترك في المجالات المعاشية في الزراعة والتوزيع المتساوي في المحصول والتضامن حتى مع القرى المتجاورة.

وبموجب تعاليمهم، فإن الإنسان هو عبارة عن منتج طبيعي وأنه ليس في حاجة إلى أوامر من الأعلى، وأن الحرية لا تتطور إلا في إطار التعاون المشترك التي بوسعها أن تنظم وتحل المشكلات. والحرية الجديدة تقف أمامها عقبتين أساسيتين تتناقضان معها، الدولة والكنيسة، التي تنص قوانينها وتعاليمها بأن لا ترى في الإنسان إلا كونه أداة عمل أو خادم وهما ما يريدان المحافظة عليه بالقوة.

ومن أجل التوصل إلى تغيير العبودية إلى السعادة ومن الاضطهاد والظلم إلى الحرية، لا بد للإنسانية في إزاحة الدولة والكنيسة، ومن أجل هذا الهدف فإن كافة الوسائل مشروعة، الوعي من خلال التربية، والرفض عن طريق الإضراب عن العمل والعنف.

وهذه العقيدة الجديدة أطلقت على نفسها اسم الفوضوية Anarchis ، كان الداعي والمبشر الأول لها ومنظمها هو الأرسقراطي الروسي ميخائيل باكونين Michail Bakunin (3) ، الذي أرسل أحد أعوانه وهو الشاب الإيطالي جوزيب فانيلي Giuseppe Fanli إلى أسبانيا والذي لم يجد أرضية ممتازة لنشر أفكاره كتلك التي وجدها لدى البراكيزوز، الفلاحين المعدمين .

وهؤلاء المعدمين الذين لم يتقابلوا مع المدينة خلال أعمارهم الشقية الطويلة سوى مع البوليس الذي يطلق النار عليهم إذا حاولوا أن يجدوا قطعة أرض غير مستغلة أينما كانت من أجل زراعتها، والكنيسة على هيئته رهبان يعطونهم، بأن الفقر هو ما قسمه الله عليهم وأن أي محاولة لرفضه يعاقبهم الرب بعذاب الموت.

لذلك، فلهؤلاء المعدمين المضطهدين، كانت الفوضوية هي النظرية المنطقية من أجل الأنعتاق من اضطهاد مئات من السنوات، فقد أعتنقها وأنظم إليها عشرات الألوف، وحتى عام 1873 كان هناك 50,000 من الباكونيين في أسبانيا، مئات الألوف انتموا إلى نقابات الفوضويين وبقوا مخلصين في انتمائهم.

ولما اختلف باكونين مع ماركس في موضوع الأممية، أتبعته البروليتاريا في أوروبا ماركس، فيما أستمر الفوضويون الأسباب مخلصين لباكونين، فكانوا يخوضون الإضرابات عن العمل، ويلقون القنابل ويغتالون ملاكي الأراضي ورجال البوليس ويحرقون الكنائس.

أما الكنيسة الكاثوليكية، فأنها قد وصمت الباكونيين، بأنهم من أسوء أعداء الشعب، بينما كان فقراء الأندلس يهتدون بكلمات باكونين: " أن العالم الجديد سوف لن يكسب إلا إذا تمت تصفية آخر أمير وراهب ".

وكان مالكي الأراضي الذين يستغلون المعدمين كالعبيد، ينتمون على الأغلب إلى فئات الأشراف والأعيان، أما الكنيسة فقد كانت تضطهد الفلاحين إما بداعي أنهم ملحدون أو تضعهم في الأراضي التي تمتلكها الكنيسة، لذلك فلم يجد الفلاحون في الكنيسة سوى الفقر ولم تمنحهم الطمأنينة والأمل.

ولما أقدمت الحكومة الليبرالية في القرن التاسع عشر على نزع الملكيات الضخمة للكنيسة، حرص القساوسة أن يحافظوا على ثروة الكنيسة وأن لا يدعوها تقع بسهولة في قبضة الحكومة، وقد أرسلت القساوسة للمناشدة إلى جميع الجهات من أجل حماية ممتلكاتها.

وفي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كانت الكنيسة وفرعها: الجزويت، تسيطر على جانب كبير من الاقتصاد الأسباني بمصارفه الضخمة، والناجم، وسكك الحديد، وعلى سفن صيد الأسماك، وساهموا في المدن الكبرى في استثمار وسائل النقل الترام، بل أنهم في مدريد توصلوا حتى إلى امتلاك أشهر النوادي الليلية.

وفي العام 1912 كتبت صحيفة الفومنتو El Fomento أن الكنيسة تسيطر على ثلث الرأسمال الأسباني المستثمر، وكان هناك مثل شائع: El Dinero es muy Catolico وترجمتها الحرفية هي " أن النقود كاثوليكية جداً " .

وساهم القساوسة في مختلف أسبانيا الذين كانوا حتى بداية القرن العشرين حوالي 100,000 شخص، ولم يدعوا أحداً يتجاوزهم، وكانت أسبانيا الثرية لهم وحدهم أسبانيا الرحيمة أما للملايين من الشعب فقد كان فقرهم وشقائهم، قسمة من الله.

وكانت عقوبة الذين يتحدثون وصايا الكنيسة هو الموت، وقد تم إعدام 14 من الفوضيين في العام 1883، لأنهم أبدوا عدم موافقتهم لهذه الوصايا.

وحتى مطلع القرن المنصرم، كانت الكنيسة الأسبانية ترمي الشخص الذي يعتقد بوجود الدورة الدموية بالهرطقة والكفر، ودارت مناقشات ومجادلات بين علماء اللاهوت في جامعة سلامنكا العريقة، حول موضوع فريد، بأي لغة تتخاطب الملائكة فيما بينها، أو فيما إذا كانت حشوة السماء من معادن الأجراس السائلة أو أنها مما يشبه النبيذ الأحمر

وكإحدى آثار ونتائج الحملة النابليونية على أسبانيا، فقد زحفت الأفكار الليبرالية إلى أسبانيا ووقف الفلاحون الكاثوليك (المتدينون ظاهرياً) في الشمال ضد الحكومة في مدريد وكان انتخاب المرشحين الليبراليين عام 1927 يعد كفراً في عرف الكنيسة الكاثوليكية بل وحتى اعتبرت قراءة صحيفة الليبراليين كفراً، ولم يكن مسموح به، سوى قراءة أخبار البورصة فحسب.

وكان من نتائج منهاج هذه الكنيسة الثرية والمتخلفة، أن ابتعد عنها الناس لاسيما الفقراء والفلاحون، وحتى عام 1931 كان 5% فقط من سكان أسبانيا، البلد الذي غالبته المطلقة من الكاثوليك، ممن يمكن وصفهم بالمؤمنين. وفي قرى الأندلس لم يكن واحد بالمائة من الفلاحين يرتادون الكنائس بصورة منتظمة. كما قادت الكراهية للكنيسة التي كانت تمارس الاضطهاد، قادت إلى انفجار عنيف.

وفي عام 1909 واجه الجيش الأسباني في مراكش هزيمة نكراء (4) وهو الجيش الذي كان قد نجح في كسب مستعمرات ثرية وامترامية الأطراف، ودعت الحكومة إلى دعوة مجندين جدد للجيش. ففي مدينة برشلونة قاد الفوضيون سخط الناس وهي التي تسمى مدينة القنابل، إذ أحرق الفوضيون وأتباعهم 21 كنيسة و34 ديراً وأخرج البعض منهم جنث الراهبات من توابيتها، ورقصوا معها في الشوارع...!

وتدخل الجيش الذي فتح النيران وقتل 180 عاملاً. والانتفاضة سميت *Seman Tragica* "الأسبوع التراجيدي" في تاريخ أسبانيا الصاخب. كما أعدم المدرس الفوضوي فرانسيسكو فيرر باعتباره من المساهمين الرئيسيين في الانتفاضة، كما أعدم لاحقاً رماً بالرصاص القائد الفوضوي سلفادور زيكوي.

ولما فقدت جبة القساوسة تأثيرها على النفوس، تدخلت السلطات المسلحة في المدينة من أجل قمع الشعب. وكان بمستطاع أبناء الأثرياء أن يجعلوا أبناء الفقراء (من الأميين غالباً) أن يقوموا بتنفيذ الخدمة الإلزامية عوضاً عنهم مقابل مارك واحد (نصف دولار) وكانوا يعاملون بصورة خالية من الشفقة من قبل نواب الضباط. وكان يقود كل تسعة جنود ضابط، وكل مائة جنرال. ويلاحظ كثرة أعداد الضباط في الجيش.

وكان ما يدعى ب *Guardia Civil* سيفيل، وهي الجندرمه، وكانت أكثر رموز السلطة المكروهة من المضطهدين في أسبانيا، والتي مثلت القبعة السوداء المثلثة علامتهم الفارقة. وقد كانت تشكيلات الجندرمه هي رد السلطة على فعاليات العصابات التي سادت حتى منتصف القرن التاسع عشر والتي كانت قد جعلت من الشوارع الأسبانية أقل شوارع أوروبا أمنياً. وكانت كل قرية تضم نقطة بوليس، تقوم بأعمال الدورية بصفة مستمرة، بالتعاون مع عناصر الجندرمه، لذلك فقد أطلق عليهم تسمية شعبية وهي: *La Pareja* (الزوج) كناية إلى الطابع المزدوج للدورية، وكان هؤلاء الشرطة والجندرمه لا يعملون في مدنهم، فقد كان ممنوعاً على الموظفين عقد صلات صداقة أو اتصالات مع السكان، فقد كان أبسط الأسباب مناسبة لإطلاق النار والتصفيات كانت تتم يومياً.

لذلك فقد كانت الكراهية شديدة لعناصر الجندرمه، وقد عبر عن هذه الكراهية اندلاع العنف المسلح والاعتقالات. ففي عام 1931 تدخلت الجندرمه في مدينة كاستيلا لك عندما كان الفوضويون يعقدون اجتماعاً فحاولوا إفساد الاجتماع. وقد هاجم المجتمعون، وهم من سكان القرى أربعة من رجال الجندرمه وقتلوهم، وقد وجدت في إحدى الجثث سبعة وثلاثين طعنة سكين. وما أطلق عليه الأسبانيان، أسبانيا العليا وأسبانيا السفلى، كانت في نزاع شديد وممرير، الفوضويون بقيادة بونا فينتورا دورتي *Buenaventura Durrti*، القاتل وناهب البنوك، المحكوم عليه في أربعة بلدان أوربية بالإعدام وتبحث عنه الشرطة وتخوض الاشتباكات من أجل إلقاء القبض عليه، وكان دائماً هناك المزيد من السياسيين يسقطون صرعى برصاص الاعتقال مثل رئيس الوزراء المحافظ إدواردو داتو *Eduardo Dato*.

والجيش الذي كان سيئ التسليح، وكان ضباطه يبيعون المؤن والأسلحة بأبخس الأثمان إلى أعدائه، ذاق في مراكش هزيمة في معارك إبادة من الثوار المراكشيين بقيادة عبد الكريم الخطابي قائد ثورة الريف الذي تمكن عام 1921 من قتل 15,000 من الجيش الأسباني في معركة مليله (5).

ويتحدث ارتور باريا وهو شاهد عيان برتبة عريف في الحرب الاستعمارية " كل جثة قتيل كنا نعثر عليها بعد أيام طويلة ملقاة على الأرض تحت الشمس الأفريقية، كنا نجدها مشوهة، مقتلعة العيون، بدون لسان، وهم مشدودي الأطراف".

وبعد كارثة مليله، قام الجنرالات المسؤولين عن الهزيمة بانقلاب، وأستلم السلطة الجنرال ميغويل بريمو دي ريفيرا *Miguel Primo de Rivera* وهو قائد منطقة كاتالونيا. وكان

الملك الفونس الثالث عشر Alfons X III قد شبه مرة الجنرال دي ريفيرا للملك الإيطالي فيكتور عمانوئيل Viktor Emanuel قائلاً "موسوليني خاصتي" my Mussolini .

وهذا الضابط الذي خسر معارك كثيرة لأسبانيا، في كوبا، الفلبين، وفي مراكش، رغم أنه كان مقاتلاً شجاعاً. والآن وبمساعدة الفرنسيين فقد تمكن من إحراز نصر لإسبانيا هي منذ أجيال بأمس الحاجة إليه. فقد تمكن مع الفرنسيين من ضرب ثورة عبد الكريم والاستيلاء على مراكش.

والمحارب القديم الذي غداً رئيساً للوزراء لم يستطع أن يتنكر لذاته، فكان يغوص باستمرار في أحياء مدريد السيئة السمعة لعدة أيام، يصدر المراسيم وهو في حالة السكر، ليعود بعد أيام ويلغيها، وفي السنوات الأولى من سيطرته على السلطة، ازدهر الاقتصاد الأسباني. ولكن فيما بعد، وبفعل تأثيرات الأزمة الاقتصادية العالمية وفضائحه الشخصية أرغم الجنرال دي ريفيرا على الاستقالة عام 1930، ثم ما لبث أن توفي في منفاه بباريس. وفي هذه الظروف، وبمساعدة القوى المتفقة في البلاد بزعامة الفيلسوف أورتيغا جازيت، ولدت La nina bonita ولم تكن هذه سوى الجمهورية .

ففي نيسان / أبريل 1931 ذهب الملك الفونس إلى المنفى من أجل تجنب حرب أهلية، وهكذا، فإن الأفكار الجمهورية في القرن التاسع عشر قد تحققت الآن وكان لها في البلاد مؤيدون كثيرون. وكان هناك ما لا يقل عن 450 نادي جمهوري يضم أكثر من 100,000 عضو. ولكن كان هناك بالمقابل عداء مرير لها من اليسار واليمين، فقد كان الفوضويون يرفضون أي شكل من أشكال السلطة، فقد كانوا يهاجمون مستخدمين العنف ضد الجمهوريين.

ومن جانب آخر، كانت الكنيسة العدو للجمهورية، والكاردينال زيكورا Segura أسقف توليدو (طليطله) الذي أفتى: " أن السباحة هي من اختراع الكفار ما لم تكن من الشيطان نفسه" وطالب في خطاب إلى رعيته بتحريمها ومنعها والنضال ضدها .

وأخيراً، فإن الجمهورية وضعت دستوراً جديداً نص على فصل الكنيسة عن الدولة. وخصت رواتب لرجال الدين، كما ألزمت المنظمات الكنيسة بدفع الضرائب، وأجازت الزواج والطلاق المدني، كما حلت نظام الجزويت، وأخذت الدولة التربية من الكنيسة.

ومنحت الجمهورية مقاطعة كتالانها الحكم الذاتي ولكن إصلاحاتها الأخرى لم تكن كما ينبغي، إذ أخفقت في توزيع الأراضي التي كان البراكيروس المعدمون يتطلعون من خلالها إلى حياة كريمة، ولكن خيبة كانت في فتور همة ونشاط اليساريون، التي تسببت في فوز القوى اليمينية في انتخابات عام 1933 الذين احتفلوا كمنتصرين، وفي تلك كانت نهاية غير متوقعة لكل ما خطط له من إصلاحات من أجل أسبانيا جديدة.

وهنا بدأت مرحلة سميت لاحقاً Breno Negro "العامين الأسودين" في تاريخ أسبانيا حيث توقفت عملية توزيع الأراضي، كذلك الحال توقف رفع أجور البراكيروس، بل حتى جرى تخفيضها إلى النصف، ثم أعيدت مدارس الكنيسة وسمح لها بمتابعة أعمالها.

ثم عادت أسبانيا لتعطس مرة أخرى في دوامة العنف والاضطرابات التي لم تكن في مصلحة الاقتصاد الأسباني، وأعلنت مقاطعة كاتالونيا استقلالها وأعلنت في مقاطعة

أسطوريا، جمهورية اشتراكية، ومرة أخرى شبت النيران في الكنائس وفي مراكز الشرطة. وفي مدينة ساما سقط 70 من رجال الجندرمة صرعى بيد الجماهير.

وكان رد فعل الحكومة أن زجت بقوات الجيش ضد الانتفاضة، وفي أسطوريا كان يقود القوات الحكومية ضابط برتبة جنرال سيكون قدر أسبانيا لأكثر من 40 عاماً، وهو الجنرال فرانسيكو فرانكو Francisco Franco الذي يتمتع بسمعة وسيرة عسكرية لامعة منذ أن كان أصغر ضابط يحمل رتبة رائد، إلى أن أصبح أصغر ضابط برتبة جنرال في الجيش الأسباني، وكان يتمتع بسمعة ممتازة في مراكز.

أرسل فرانكو جنوداً من الفرقة الأجنبية ضد عمال الناجم الأستوريين التي كانت متمركزة أصلاً في مراكز والذين كان فرانكو يقودهم لأعوام طويلة وكذلك من الجنود المراكشيين النظاميين. (6)

وكانت أسبانيا طوال قرن كامل قد قاتلت المراكشيين من أجل الاستيلاء على بلادهم بعد 400 سنة من إخراجهم من أسبانيا، وها هم المراكشيون يقاتلون مرة أخرى في أسبانيا بقسوة وبما تعلموه خلال سنوات الحرب الاستعمارية، فكانوا يقتلون كل شيء يقع أمام بنادقهم وخناجرهم.

وفي هذا الصراع الغير متكافئ، سقط الآلاف من العمال الأستوريين وجرح 30,000 منهم، وبحسب قناعة فرانكو، فإنه كان قد أنقذ وطنه للمرة الأولى، رغم أنه لم يتلقى ما يكرس خدمته هذه.

وفي الانتخابات الثانية التي جرت في شباط / 1936 أنتصر اليسار المؤتلف في الجبهة الشعبية على منافسه الجبهة الوطنية الرجعية، وكانت الجبهة الشعبية قد وعدت بإصلاحات جذرية.

وكان حزب الاشتراكيين، الفصيل الأكثر قوة في جبهة اليسار، الذي كان قد أنقسم على نفسه، وكان أحد أطراف الانشقاق لا يريد المزيد من الإصلاحات، بل الثورة. وكان أكثر قادتهم شعبية هو فرانسيكو لارجو كاباليرو Francisco Largo Caballero الذي كان قد حكم عليه بالإعدام سنة 1917 لمساهمته في إحدى الإضرابات، ووضع في السجن. وهو الذي كان حتى بلوغه سن الرابعة والعشرين لا يعرف القراءة والكتابة، وفي السجن تعلمها وقرأ مؤلفات ماركس وأنجلز ولينين. والآن إذ يبلغ السابعة والستين من العمر (عام 1936) وقد أملاك الحقائق الموضوعية وأقتنع بالحمية التاريخية لانتصار الطبقة العاملة. وقد أمتنع يسار الحزب الاشتراكي من دعم ومساندة الجناح الليبرالي الذي كان يقود الحكم في شخص مانويل أزانيا Manuel Azana ، وكان الجناحان غالباً ما يصطدمان في الشوارع خلال المظاهرات كخصوم.

أما اليمين الأسباني، الذي فشل في الانتخابات فشلاً ذريعاً، فلم يحصل سوى على أقلية في البرلمان، ولم يتمكن حتى من إيصال زعيمهم إلى مقاعد البرلمان والذي لم يكن سوى جوزيه أنطونيو بريمو دي ريفيرا Jose Antonio Primo de Rivera، وهو نجل الجنرال المشهور دي ريفيرا الذي حكم كدكتاتور لمدة عشرون عاماً، وكان هذا محامياً ناجحاً وقد تأثر بالغاً بالأفكار الفاشستية الإيطالية وأسس حزب الكتائب الأسبانية Falange Espanola وأسماها بهذا الاسم تيمناً بقوات الملكة هيلانه المعروفة Phalax الضاربة.

وحدد حزب الكتائب الأسبانية هدفه وكان: تنظيف أسبانيا من السموم الماركسية. وكانت من أساليبهم الانتخابية، استخدام الشبان من حملة المسدسات، وكان يطلق عليهم Pistoleros الذين كانوا يطلقون النار في الشوارع والساحات على خصومهم الأيديولوجيين من الشيوعيون والاشتراكيون والفوضويون، ووقفت الحكومة عاجزة عن السيطرة على الموقف، فشاعت الفوضى.

وحيثما امتنعت الحكومة عن إعلان حالة الطوارئ كما طالب بذلك اليمين، بدأ جنرالات أسبانيا يخططون لانقلاب عسكري، وأخذت الحكومة علماً بذلك في الوقت المناسب، وشخصت الجنرالات والعناصر المشتبه باشتراكها في المؤامرة وأجرت عمليات تنقل، أنتقل بموجبها الجنرال إلى جزر الكناري والجنرال غوديد Goded إلى بلبيا والجنرال مولا Mola إلى بامبلونا في الشمال.

ولكن ذلك لم يكن ليمنع الانفجار، ولكن ما جرى هو تأخيره فحسب. ففي تلك الفترة الحساسة، جرت محاولة لاغتيال الزعيم الاشتراكي كابليرو، وألقي القبض على زعيم حزب الكتائب الفالانج، جوزيه أنطونيو الذي جاء به إلى رئيس الوزراء آزانيا وطلب منه مغادرة أسبانيا، فأجابته القائد الفاشستي :

" أنا لا أستطيع المغادرة لأن أمي مريضة"
فقال له رئيس الوزراء : " ولكن أمك متوفية منذ سنين عديدة" .
فأجابته القائد الفاشستي : " إن أمي هي أسبانيا، وأنا لا أستطيع تركها" .
ولم يكن بعلمه أنه بذلك سيدفع عاجلاً حياته ثمناً لهذا الموقف.

وفي مدريد اندلعت حرب أهلية صغيرة، فقد حدث ذلك عند مراسم دفن أحد ضباط الجنرمة، إذ تدخلت الفاشست وهم يهتفون: " أسبانيا موحدة ... عظمى وحررة " . فأجاب عليهم الشبان الاشتراكيون بنشيد الأمية، فاشتبك الجانبان في معركة دامية كانت حصيلتها 12 قتيلاً صرعوا في الشارع بضمنهم ابن عم رئيس حزب الكتائب الفالانج، جوزيه أنطونيو.

ابتدأ الزعماء السياسيون وقادة الأحزاب بصب الزيت على النار، فطالب الزعيم الاشتراكي كابليرو بإعلان فوري لديكتاتورية الطبقة العاملة. فيما كان زعيم حزب الكتائب، ومن زنارته في السجن، يحث القادة العسكريين على القيام بانقلاب عسكري. والفوضويون كانوا ينشدون بصوت مدو نشيدهم: أبناء الشعب Hijos del Pueblo ، التي كانت تنادي الجماهير، " أن من الأفضل أن نموت، على أن نكون كالعبيد " ، الفاشيون كانوا ينشدون أغنيته النضالية " Cara al Sol " الوجوه صوب الشمس، الموت سيقابلني " وهكذا فأن المسرح الأسباني كان يستعد لحفلة الموت الكبرى.

وفي ليلة 12/ تموز - يوليو/1936 أطلق شبان يمينيون من البيستوليروس(حملة المسدسات) النار على الملازم جوزيه كاستيلومنت قوات الطوارئ، وأتهم الضباط من زملاء القتيل، القوى اليمينية وزعيم الملكيين كالفو سونتيلو Calvo Santelo فداهموا بيته وحملوه معهم بسيارة وأردوه قتيلاً برصاصة في قفا رأسه.

وفي يوم 14/ تموز، وعند إقامة مراسيم دفن الضحيتين أقسم أتباع الجانبين على الانتقام "أمام الله وأمام أسبانيا".

أعطى الجنرال مول من مقره في بامبلونا، أعطى زملائه من جنرالات الانقلاب إشارة البدء: "إن هيلينا قد ولدت طفلاً جميلاً"، وفي 18 / تموز تمردت الحاميات العسكرية في أسبانيا ضد الحكومة.

وقد أرغمت الوشاية قادة التمرد من الجيش الأسباني في حاميات شمال أفريقيا على إعلان التمرد قبل أوانه، ففي 17 / تموز / 1936 بعد الظهر، أعدم المتمردون الجنرال روميروالس Romerales ، قائد الحامية في مليلة المراكشية، واحتلوا المدينة، وفي اليوم التالي كانت كل مراكش الأسبانية في قبضة المتمردين، وأعدم كل من قاوم حركة التمرد.

كان الجنرال فرانكو قائداً لحامية جزر الكناري، والذي خف بسرعة إلى شمال أفريقيا - مراكش الأسبانية متنكراً في هيئته وثيابه، حاملاً جواز سفر مزور، على متن طائرة كانت قد وصلت من بريطانيا قبل أسبوع. وأعلن من الحاميات الأسبانية هناك، حالة الحرب على الجمهورية، وأخلى سبيل المجرمين وكل العناصر المعادية للجمهورية.

فقد ابتدأت حركة التمرد والعصيان. (7)

وللوهلة الأولى، فقد أستلم فرانكو(الذي سيكون القائد المقبل لحركة التمرد)، قيادة قوات المتمردين النظامية لجيش شمال أفريقيا، أما الأسطول البحري الحربي فإنه لم ينظم إلى التمرد. وأما قادة السفن الذين حاولوا أن ينظموا إلى المتمردين، فقد ألقى القبض عليهم أو قتلوا من قبل البحارة، وبذلك بقي الأسطول الذي يقوده البحارة مخلصاً للحكومة وللجمهورية. وكانت قطعه تقوم بأعمال الدوريات قبالة شاطئ شمال أفريقيا محققة بذلك حصاراً لقوات المتمردين وعازلاً بينها وبين سواحل الوطن الأم، أسبانيا.

أما على أرض الوطن الأم، فإن الأوضاع لم تكن جيدة كما صورتها الحكومة في بيانها عبر إذاعة مدريد: " لا أحد، على أرض أسبانيا قد ساهم بصورة مطلقة في هذه المؤامرة المجنونة " ولكن الأوضاع لم تكن مشجعة للمتمردين.

أما قوات نافارا، التي كان يقودها أحد زعماء الانقلابيين، الجنرال مولا وكان مسلحاً بمسدسه فحسب، فقد أستلم السلطة هناك وسيطر على منطقة جنوب أسبانيا.

وكان الجنرال كويبو دي لانو Queipo de Llano قد ألتحق بسيارته الليموزين مع عدد من مساعديه إلى مدينة سيفيليا، وكان قد أبلغ بالانقلاب وبسيطرة المتمردين على مراكش الأسبانية، فتحرك مع ثلاثة من الضباط إلى مقر الحامية فيلا أبريلا Villa Abrielle وأعتقله عندما تردد الجنرال الالتهاق بالمتمردين.

وفي تلك الأثناء، كان المعسكر يضم وحدة عسكرية مجهزة تجهيزاً قتالياً كاملاً، ومستعدة للحركة، توجه كويبو إلى قائد هذه الوحدة بالتهنئة على ما وصفه " في هذه الساعات المصيرية، بالوقوف إلى جانب رفاقه في السلاح والعمل معهم"، ولكن قائد الوحدة، وكان برتبة عقيد، خيب أماله إذ أعلن أن وقوفه هو إلى جانب الحكومة.

ولما أسقط في يد الجنرال، أقترح على العقيد أن يتابعان المناقشة والمباحثات في غرفة العقيد، وهناك وبمساعدة الضباط الذين قدموا معه، تم احتجاز العقيد، وسمي ضابطاً برتبة رائد بدلاً عنه قائداً للوحدة، بعد أن أبدى استعداده للعمل والتعاون مع المتمردين. وقد جرى ذلك بمساعدة قوات الحزب الكتائبي ورجال الجندرية الذين التجئوا إليهم، وبذلك تم للجنرال كوبيو في غضون ساعات احتلال المدينة التي يعد سكانها، بحوالي 250,000 نسمة بما في ذلك محطة الإذاعة في المدينة.

ومن هناك، كان هذا الضابط الذي غدا بلمسة يد، نائباً للملك في سيفيليا، كان طوال الحرب الأهلية يذيع يومياً بطريقة أبتكرها، أفزعت وأطربت أسبانيا كلها ومنها:

" أيها السيفيليون، أقول لكم بأنكم جميعاً لوطيون وأبناء عاهرات، وأي نذل منكم يقف ضد الحركة الوطنية (يقصد انقلاب فرانكو) سنقتله كما نقتل الكلب أما الجنرالات الماركسيون فهم قذرون حتى لو أنك أمسكت بهم بواسطة الملقط ".

أما أعداؤه فكانوا يسخرون منه، بأنه كان يذيع وهو في حالة السكر. رد عليهم بأن كان يقرع ميكرفون الإذاعة بقدرح النبيذ، قائلاً: "جميل، ولم لا؟ لم لا يتمتع المرء بالشراب الأصلي ونساء سيفيليا الجميلات ؟

في غضون ذلك كانت الحكومة في مدريد، ما تزال تردد: " أنها تسيطر على الموقف وأن مصير التمرد ما هو إلا ساعات". الجماهير هبت إلى الانتفاضة بعزم، ودعت إلى السلاح، وأكثر من 100,000 من جماهير مدريد هبت في ليلة 18/ تموز تطلب السلاح، كانت تهتف بنبرة واحدة " السلاح .. السلاح .. السلاح ". ولكن حتى ذلك الوقت، كانت حكومة مدريد تردد في اتخاذ المواقف الحازمة، فقد امتنعت عن تزويد نقابات الحزب الاشتراكي UGT وكذلك نقابات الفوضويين CNT بالسلاح، فقد كانت تخشى أن يؤدي ذلك إلى حمامات دم .

ولم تعد الجمهورية تمتلك القوات المسلحة التي تأتمر بأمرها، فقد انتظمت أكثر من نصف القوات المسلحة في عداد المتمردين. وفي 19 / تموز أمر رئيس الوزراء الجديد جوزيه جيرال، بفتح مستودعات السلاح للعمال. وفعلاً فقد تم توزيع 50,000 بندقية. وضمن هذا العدد 5000 بندقية لم تكن صالحة للاستخدام، إذ كان التراباس قد رفع منها) وهو الجزء الهام في البندقية) أودعت في مقر حامية مدريد في معسكر مونتانيا. هناك كان الجنرال المتمرد فانجول، قد أستلم القيادة ويسيطر على 2500 رجل، وبهم كان يريد احتلال مدريد لمصلحة المتمردين.

وفي ليلة 20/19 تموز، تدفقت الجماهير وتعد بعشرات الألوف باتجاه معسكر مونتانيا، وفي طريقهم أضرمو النيران بالعديد من الكنائس، وبضعة آلاف منهم كانت أسلحة بحوزتهم من بينها مسدسات تعود إلى أيام نابليون أو كانوا يحملون السكاكين، ولكنهم بطريقة ما كانوا يمتلكون مدفع ميدان واحد.

ويكتب آرتورو باريا Arturo Barea وهو شاهد عيان، عن هذه الوقائع وعن هجوم الجماهير الشعبية ويضمنهم النساء والأطفال على نيران الرشاشات الصادرة عن المدافعين الفاشست من المعسكر قائلاً :

" كانت الجماهير المتماسكة وكأنها قطعة واحدة، تهاجم المعسكر إلى الأمام كالعاصفة. وفي تلك اللحظة، كان الكل قد غدا واحداً، بهتاف واحد لا يمكن إيقافه أو تشتيته، تحت رميات ونيران الرشاشات.

كنا نعلم جميعاً، على الرغم من أن أحداً لم يقل لنا، بأن المعسكر سوف لن يصمد أمام هجماتنا، وكانت موجات الهتاف والرصاص تسمع الآن من داخل بنايات المعسكر، ومن إحدى الشبابيك شوهد أحد العسكريين الذي رفع بندقيته إلى الأعلى وقذف بها إلى الأسفل، إلى الجموع البشرية الذين كانت فرحتهم الهائلة هي الإجابة على تصرفه. وجماعة أخرى كانت تعود خلف أحد الجنود (الذي كان فيما يبدو قد أطلق النار على الجمهور) وكان الفرع والخوف قد أمثلكه، وهو يحاول الهرب، بيد أن أحدهم أسقطه أرضاً عندما وضع قدمه أمامه، فتراكم الجمهور عليه، ولما انفصوا عنه لم يكن بالإمكان التعرف عليه."

وكانت برشلونه، المدينة الأسبانية الثانية ذات المليونين نسمة، قد بقيت في قبضة الجمهوريين. وهناك أمر الجنرال مانويل غوديد Manuel Goded الحامية صباح يوم 19 / تموز باحتلال المدينة. وكان الجنود قد أخبروا بأن عليهم حماية الجمهورية. وكان لدى الفوضويين ترسانتهم الخاصة من الأسلحة، وقد سلحوا في غضون تلك الساعات، النشطاء في نقابهم CNT التي كان عدد أعضائها في برشلونه، عاصمة كاتالونيا وحدها، ما يناهز 450,000 ألف عضو.

وفيما عدا ذلك، فقد أنظم إليهم الآلاف الشباب من زوار مدينة برشلونه من الأسبان والأجانب الذين قدموا إليها من أجل إقامة "الألعاب الأولمبية الشعبية" التي تقرر تنظيمها في أسبانيا رداً على الألعاب الأولمبية "الفاشية" التي كان من المقرر أن تبدأ فعالياتهما في شهر آب المقبل.

وكان الكثير من العمال الرياضيين، الذين قالت عنهم أجهزة دعاية الحزب الكتائبي الفاشي بأنهم من حثالة البشر، قد وجدوا أنفسهم خلف المتاريس جنباً إلى جنب مع المقاتلين من أجل الدفاع عن الجمهورية، بأيديهم البنادق يطلقون النار على الفاشست. وكذلك العمال الرياضيون الألمان والنمساويون الذين أطلقوا على أنفسهم "شبيبة تيلمان" بقيادة العضو السابق في البرلمان الألماني الرايخستاج Reichstag الشيوعي هانز بايملر Hans Beimler ، فيما وقف عدد من الفوضويين خلف القوات بدون سلاح، وطفقوا يناشدون الجنود بأن لا يطلقوا النار على أخوتهم العمال، بل على ضباطهم. وقد استجاب الكثير من الجنود لهذا النداء والمناشدة، وانظموا إلى القتال دفاعاً عن الجمهورية .

وفي برشلونه أيضاً (التي كانت معقلاً جمهورياً) أنظم حتى رجال الشرطة والجندرمه إلى جانب الجمهورية، إلى جانب النقابات ويكاد هذا لا يصدق، وأبتهج حتى الفوضويون لذلك وقالوا، " إذا وصل الأمر بأن ينظم رجال القبعات المثثة اللامعة من الجندرمه والشرطة إلى جانب الشعب، فذلك يعني أن النصر قد غدا مؤكداً ."

والجنرال غوديد الذي قرر بادئ الأمر الانضمام إلى المتمردين والفاشية، القي القبض عليه وأنقذ من الإعدام بمبادرة ناضجة من أحد الشيوعيين الذين لهم كلمة مسموعة وهو رامون Ramon الذي كان قد أعتال ليو تروتسكي، بأمر من ستالين (8)

أما الرئيس الكتالاني لويس كومباني Luis Company ، فقد أعتبر الجنرال سجينه الشخصي، وطالبه بأن يتحدث في الإذاعة إلى زملائه من أجل إيقاف الاشتباكات. وقد قبل الجنرال العرض وتحدث في الإذاعة قائلاً:

" أنا الجنرال غوديد، أتحدث إليكم الآن ليس كسجين، وإنما كأسباني. وأطالبكم بأن تلقوا أسلحتكم أرضاً " (9)

وكان نداء الجنرال المشهور والمحترم، الذي كان قبل يومين من أسره قد أستولي على مالوركا لصالح المتمردين، أدى إلى إرباك المتمردين وعمق من بلبله الأمور في صفوفهم كان من نتيجته استسلام عدة معسكرات، بضمنها معسكر فالنسيا الهام، إلا أن الجنرال قدم فيما بعد أمام محكمة عسكرية حكمت عليه بالإعدام.

وفي الأيام الأولى للانقلاب، وعلى الرغم من أن المتمردين الفاشست كانوا لجهة الجنود والأسلحة متفوقين، إلا أن أوضاعهم العامة كانت سيئة. وكانوا يسيطرون على مساحة واسعة في الشمال ومساحة صغيرة في الجنوب، إلا أن الجمهورية كانت تحتفظ بالعاصمة وبالمدن الصناعية الهامة مثل برشلونة وبيلباو، المدينة الساحلية في الشمال.

القتل والاعتقالات كانت سائدة في كلا الجانبين من أسبانيا التي كان عدد سكانها يناهز 24,500 مليون نسمة، وتسيد الحقد والكراهية البلاد لسنوات طويلة، وقسمت الناس وفرقت بينهم، كما يذكر ذلك المؤرخ البريطاني هوغ توماس Hugh Thomas في المدن والقرى والأرياف. فلم يكن هناك أسبان، بل "فاشست" و"حمر" وغطس الجميع في سادية الانتقام الدموي.

وفي الجانب الآخر، الانقلابيين وحلفائهم الفلانج (الكتائب) وفرق الاعتقالات بدأت تظهر كل ما له رائحة الجمهورية، و يقدم أمام المحاكم العرفية كل من قدم مساعدة إلى (الثوار)، هكذا كانوا يطلقون تسميتهم على الحكومة الشرعية، كان هذا (الإرهاب الضروري) كما وصفه الجنرال مولا الذي لم يكن يوفر حتى النساء والأطفال من الإعدام. وكانت الجثث تبقى مطروحة في أماكن الإعدام من أجل إلقاء الرعب في قلوب الناس. أما الجنرال فرانكو فقد صرح لأحد الصحفيين البريطانيين: " إذا كان ذلك ضرورياً فليعدم نصف سكان أسبانيا".

وفي المناطق الجمهورية كانت الميليشيا والفوضيون والقوى الجمهورية الأخرى يتعقبون الفلانج(الكتائب) الفاشست وكل من يرتدي ملابس الرهبان. وفي بعض القرى اتخذت التصفيات طابعاً عشوائياً إذ قتل ملاكي الأراضي والأثرياء، والمحامين، والتجار، القساوسة، وبلغ عدد الذين قتلوا 700 بضمنهم الراهبات وكانت عقوبة الذين يتحدون وصايا الكنيسة هو الموت، وقد تم إعدام 14 من الفوضويين في العام 1883، لأنهم أبدوا عدم موافقتهم لهذه الوصايا. كما قام الجانبان بأعمال المصادرة، وفي الأسابيع الأولى قتل 100, 000 شخص نتيجة المذابح هنا وهناك.

وكانت الشخصية التي سنتسيد حرب الأخوة هذه لا تزال شاغرة، فالجنرال سان جورجو الذي كان سيستلم القيادة العليا للتمرد، لقي مصرعه لدى تحطم طائرته عند إقلاعها من منفاه في البرتغال، وكانت في طريقها إلى عاصمة التمرد في بورغاس شمال غرب أسبانيا. وكان الجنرال ذو الشخصية الهامة يرتدي ملابس العسكرية الاستعراضية، مزينة بكافة

الأوسمة والميداليات التي كان قد حصل عليها، وقد ملئ الطائرة الصغيرة بأكثر مما تحتمل من الحقائب، ولامست عند إقلاعها أحد الجدران وشبت فيها النيران.

وإذ لم يصل القائد المرتقب للانقلاب، بقي الجنرال مولا في الشمال، والجنرال كويبو في الجنوب، ينقصهم الجنود والأسلحة، وقبل كل شيء العتاد والذخيرة، كان الجنرال فرانكو يقود قوات ضاربة من الجيش الأفريقي، ويفصله عن البلاد، الممر المائي الضيق جبل طارق، وفي وضعه هذا كان أشبه ما يكون في المصيدة، ولم يكن مقدراً له أن يربح الحرب، ولا حتى أن يبدأها البداية الصحيحة لو لم يحصل فجأة على تحالف سريع وحلفاء أقوى، وهما القائد الفاشسي الإيطالي موسوليني Mussolini وزعيم النازية الألمانية هتلر Hitler. (10- 11)

هوامش الفصل الأول

- 1 - يحاول الكاتب في أكثر من مكان في هذا الكتاب أن يشير إلى وحشية الجنود المراكشيين (المغاربة) الذين كانوا مجندين في جيش فرانكو وكأنهم قساة القلوب الوحيدة في هذه الحرب متناسياً أن زجهم في حرب لا طائفة لهم فيها هو عمل أكثر وحشية. المغرب
- 2 - هذا قبل تحول جورج أرول إلى سهم من سهام الرأسمالية والرجعية. المغرب
- 3 - ميخائيل الكسندروفيتش باكونين (1814 - 1876) مؤسس ومنظر الأيديولوجية الشعبية والفوضوية، أشارك في ثورة 1848 - 1849 في ألمانيا، أنظم إلى الأممية الأولى ووصف ماركس الباكونينية: بأنها نزعة انعزالية لا تتفق مع الحركة العمالية. طرد عام 1872 من الأممية لنشاطه الانشقاق . المغرب
- 4 - كانت تلك هي معركة أنوال بين مجاهدين الريف المراكشيين بقيادة المجاهد الكبير عبد الكريم الخطابي . المغرب
- 5 - الأمير عبد الكريم الخطابي : 1882 - 1963 : قائد سياسي وعسكري وطني في مراكش درس في جامعة فاس وتنقذ ثقافة وطنية إسلامية وأوربية واسعة خلافاً لما يحاول المؤرخين الأوربيين وصفه بالهمجي والسفاح، وعمل بالإدارة وفي الصحافة قبل أن يستلم قيادة حركة طرد الاستعمار الأسباني في بلاده أثر وفاة والده، وقاد حركة التحرر بنجاح وكفاءة في المجال السياسي والعسكري وكاد أن يتحقق له طرد الأسبان من وطنه لولا نجدة الاستعمار الفرنسي للأسبان. أسر ونفي إلى أحد الجزر الفرنسية في المحيط الهندي وخلال نقله إلى فرنسا، التجأ إلى مصر خلال مرور السفينة بقناة السويس وبقي فيها حتى وفاته عام 1963 . المغرب

6 - الفرقة الأجنبية : تشكيل عسكري يعتمد على المرتزقة من الأجانب ومن المجرمين والقتلة الملاحقين في بلدانهم. ويتلقون تدريباً عنيفاً أشبه بتدريب القوات الخاصة وتتميز بالشراسة. والجيش الفرنسي كان يضم مثل هذا التشكيل حتى لمرحلة ما بعد حرب الجزائر.
المعرب

7 - جزر تقع في المحيط الأطلسي قبالة السواحل المغربية - الموريتانية وهي تابعة لأسبانيا.
المعرب

8 - برونشتين ليف دافيدوفيتش تروتسكي (1879 - 1940) القيادي البارز في الحزب البلشفي الروسي والوزير في الوزارة السوفياتية الأولى وعضو المكتب السياسي، اختلف مع الحزب الشيوعي السوفياتي حول العديد من القضايا الأيديولوجية والسياسية. نفي خارج الاتحاد السوفياتي، أعتيل في المكسيك .
المعرب

9 - يورد الكاتب الفرنسي المعروف أندريه مالرو في روايته "الأمل" وهي سيرة مشاركته الشخصية في الحرب الأهلية الأسبانية، أن نداء الجنرال غوديد كان كالاتي : "هنا الجنرال غوديد، وأنا أخطب الشعب الأسباني لأعلن إليه أن القدر كان ضدي وإنني الآن أسير. أقول ذلك حتى يشعر كل أولئك الذين لا يريدون مواصلة القتال بأنهم في حل من التزام نحوي"
أندريه مالرو : الأمل صفحة 49 المعرب

- بنيتو موسوليني : 1883 - 1945 : كان موسوليني قد أستلم السلطة في إيطاليا وسماه الملك عمانوئيل رئيساً للوزراء بدعم من العسكريين المتعاطفين مع الحزب الفاشستي الذي كان موسوليني يتزعمه عام 1922 حكم إيطاليا كديكتاتور، قتل عام 1945.
المعرب

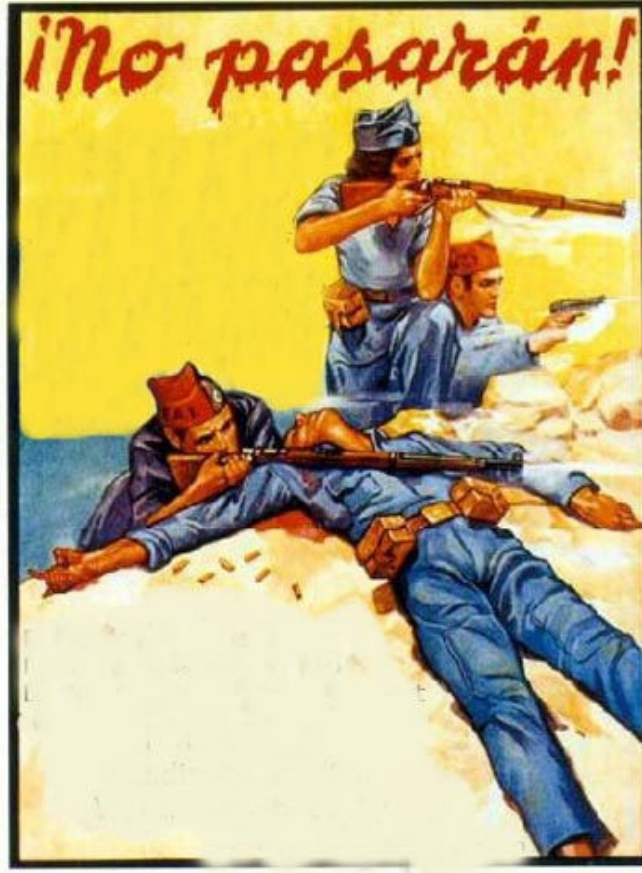
11 - أدولف هتلر : 1889 - 1945 : نمساوي، أسس الحزب النازي الألماني، أصبح مستشاراً وديكتاتوراً لألمانيا عام 1933 قاد ألمانيا في الحرب، أنتحر عام 1945.
المعرب

الفصل الثاني

معسكران في أسبانيا - ألمانيا وإيطاليا تدخلان الحرب الأهلية
الفاشست يضغطون - الجمهورية تدافع عن نفسها

وأدار الجند وجهي إلى الحائط
وأطلقوا على زخة من الرصاص وقتلوني
ولما عادوا إلى ثكناتهم
كانوا ينشدون أغاني

غارسيا فيديريكو لوركا



لن يمروا ملصق للجمهوريين

أدى نشوب الحرب الأهلية في أسبانيا إلى صدمة مفاجئة في حكومات الدول المجاورة لها، في فرنسا التي يحكمها الاشتراكيون بالائتلاف مع اليساريين في جبهة شعبية برئاسة الاشتراكي ليون بلوم Leon Blum ، وشمالاً في ألمانيا حيث كان يحكم الحزب الاشتراكي القومي الألماني (مختصر حروفها NSDAP وتختصر بالنازي)، وفي الجنوب الشرقي، إيطاليا التي كانت تحت حكم الحزب الفاشستي، وهما دولتان تضرمان لفرنسا العداء. وكان قيام دولة فاشية جديدة في حدودها الجنوبية سيمثل خطراً مؤكداً عليها.

وإيطاليا الباحثة عن المجد، حيث كان زعيمها الدونشي بينيتو موسوليني Duce Benito Mossolini لم يكن يتعطش إلى جعل البحر الأبيض المتوسط بحيرة إيطالية فحسب، بل كان يطمح إلى جعل جميع دول البحر الأبيض تحت السيطرة الإيطالية، بحيث يصبح بحراً داخلياً، والعجيب أن نهوض أسبانيا فاشستية قد أثارت فيه حماسه.

ولكن لماذا أراد أدولف هتلر Adolf Hitler ، الذي كان قد صرح لبعض المقربين إليه، بعد قيامه بمغامرة احتلال منطقة الراين: "بأنه قد تجاوز المرحلة الأكثر إثارة في حياته، وتركها خلفه، وأنه يريد الآن أن يكرس جهوده بجعل أولمبياد برلين وتحضيراتها أمراً لم يسبق له مثيل، ترى لماذا أقحم نفسه في حرب الأخوة في أسبانيا ..؟ (12)

وقصة الليلة التي أقحمت ألمانيا نفسها في الحرب الأسبانية، جرت أحداثها كمغامرة تافهة، لعب الدور الرئيسي فيها: الصدفة، ورجل أعمال ألماني كان يعيش في الحي العربي في مدينة تطوان عاصمة أسبانيا - المراكشية. وإذا كان التاريخ من صنع الرجال، ففي هذه الحالة فأن تاريخ الحرب الأهلية الأسبانية قد صنعه رجل واحد.

يوهان برنهارد Johannes Bernhart المنحدر أصلاً من بروسيا الشرقية الألمانية، والذي كان ضابطاً برتبة ملازم في الحرب العالمية الأولى، تحول لاحقاً إلى تاجر سكر وأحد المضاربين في بورصة مدينة هامبورغ، أفلس في الأزمة الاقتصادية العالمية وفر من دانيه إلى مراكش الأسبانية. (13)

في تطوان، عمل في تجارة تعهدات تجهيز اللحوم إلى مطابخ الحاميات الأسبانية، حيث كان يتمتع هناك بصلات طيبة مع الضباط والمسؤولين في الراضي الأسبانية. وفي عام 1933 أنظم إلى الحزب النازي برقم 1,572,819 وكان عضواً في منظمة مراكش الأسبانية التي كانت تضم 30 عضواً آخر، وكان مهتماً بواجب مراقبة الصحافة، وبضربة حظ من ضربات التاريخ، أصبح هذا الرجل الذي لم يكن شيئاً، الرجل المناسب في الوقت المناسب وفي المكان المناسب.

وفي 17/ تموز / 1936 أتخذ الجيش الأسباني الأفريقي موقفه المعارض ضد حكومة مدريد، ولكنهم كانوا يعيدون عن إمكانية القتال على أرض الوطن الأم.

أما بحارة الأسطول الحربي الأسباني، فقد اعتقلوا أو قتلوا الضباط الموالين للتمرد وأعلنوا ولائهم للجمهورية، واتخذت السفن الحربية التي كان يقودها البحارة موقف القيام بالدوريات في الفسحة الضيقة بين شمال أفريقيا وأسبانيا، وكان الجيش الأسباني في أفريقيا لا يمتلك طائرات نقل.

وحاول الجنرال فرانكو والمتآمرين معه في أسبانيا يائسين إيجاد الطائرات التي تنقل قواتهم من الشمال الأفريقي، إلى جنوب أسبانيا، ولبحث هذه المشكلة، قاموا بأجراء اتصالاتهم كحلفاء مع المانيا النازية وإيطاليا الفاشية.

ولم تكن وزارة الخارجية الألمانية تعتقد بجدوى التدخل في أسبانيا إذ لم تكن ترتأي التدخل والتعامل في الشؤون الداخلية لأسبانيا، لا بل أن مستشار السفارة الألمانية في مدريد كان يعتقد بصعوبة انتصار المتمردين (فرانكو وأنصاره).

وقد أجرى فرانكو من جانبه اتصالاً مع الحكومة البريطانية طالباً مساعدتهم وذلك بإمداده بالطائرات والمعدات الحربية " للجيش الأسباني غير الماركسي" ولكن طلبه ظل بدون إجابة، ووجد جنرات الانقلاب أنفسهم وقد تبددت أحلامهم بالنصر.

وهنا تذكر العقيد ساينتز بوراجا Saenz de Buruga قائد حامية تطوان صديقه الألماني يوهان وجلبه لمقابلة فرانكو الذي كان لتوه قد أستلم النياب: أن الانقلابيين في جزر الكناري، قد استولوا على إحدى طائرات الخطوط الجوية الألمانية لوفت هانزا Lufthansa وهي من طراز يونكر 52 وأنهم في طريقهم إلى تطوان للانضمام إلى التمرد بقيادة فرانكو، وهنا سأل فرانكو يوهان بيرنهارد فيما إذا كان يستطيع الطيران بطائرة اللوفتهانزا إلى برلين التي ستأتي إلى تطوان، لي طرح على حكومة الرايخ طلب المساعدة.

أجاب بيرنهارد بالموافقة على الرغم من أنه لا يعرف أحداً في برلين، أو سياسياً ذو نفوذ، ولكنه سأل فرانكو بماذا أو كيف ستدفع أسبانيا نفقات المساعدات، فأجابه فرانكو، إن الدفع سيكون من احتياطات الذهب في خزائن البلاد الموجودة في بنك أسبانيا المركزي Banco de Espana ، وكان لدى فرانكو 12 مليون بيزيتا والتي كانت تعادل آنذاك 4 مليون مارك، من ماركات الرايخ الألماني.

وحزم بيرنهارد أمره للسفر مستصحباً معه مسؤول المنطقة للحزب النازي في تطوان أدولف لانكن هايم، وقائد السلاح الجوي الأسباني فرانسيسكو أرانز Francisco Arranz كمبعوث خاص من فرانكو مع رسالة رجاء إلى هتلر.

وقد كتب فرانكو في رسالته مستذكراً اتصاله الأول وزيارته إلى ألمانيا حينما قام بزيارة قصيرة إلى مدرسة المشاة في درسدن، في أعوام العشرينات، وعبارات ودية "سعادتكم" و " النضال المشترك ضد الديمقراطية الفاسدة وقوى الشيوعية المدمرة المنظمين تحت لواء روسيا".

وكانت قائمة الأسلحة التي طلبها فرانكو تضم فيما تضم: 10 طائرات نقل ذات السعة العالية و 20 مدفع مضاد للطائرات من عيار 20 ملم، و6 طائرات مقاتلة من طراز هينكل، رشاشات وبنادق بأعداد كبيرة مع أعتدتها وقنابل للطائرات من مختلف الأنواع حتى أثقل أنواعها من عيار 500 كيلو غرام، وكانت الرسالة موقعة بأسم: فرانسيسكو فرانكو بهامودا: القائد العام للقوات الأسبانية في مراكش الأسبانية.

في 25/ تموز تقدم المبعوثين من فرانكو إلى قسم التنظيم الخارجي للحزب القومي الاشتراكي الألماني " النازي " الكائن في حي تير غاردن ببرلين، ثم قاد أرنست فيلهام القادمين إلى نائب الفوهرر(الزعيم) والذي لم يكن سوى رودولف هيس Rodolf Hess

الذي أمر بجلبهم بطائرة خاصة إلى مقره الصيفي في منطقة تورنغن بجنوب ألمانيا. وأصغى هيس إلى بيرنهارد، ثم فاجأ القادمين من تطوان، بأنهم سيقابلون الزعيم هتلر في نفس الليلة وكان يحضر حفل موسيقي لفاغنر في مدينة بايروت، ومن مكان إقامته هناك أمر هاتفياً بجلب مبعوثي فرانكو إليه هناك على الفور.

وتساءل هتلر: من يكون فرانكو هذا، وما بحوزته من إمكانيات أو هي متيسرة له..؟ فعرض برنهارد السيرة العسكرية لفرانكو، وأخبره عن الـ 12 مليون بيزيتا التي يمتلكها في تطوان، وأثارت هذه النقطة استغراب هتلر الذي تساءل: " ولكن يمثل هذه النقود القليلة لا يمكن لأحد أن يبدأ حرباً ". ولكن هتلر وعلى الرغم من هذا التقدير للأوضاع المالية لفرانكو، فقد أمر على الفور بمساعدته قائلاً لمعاونيه: " إن ألمانيا تستطيع بهذه الطريقة أن تضمن حياد أسبانيا في حرب عالمية، كعرفان بالجميل بدلاً من تعريض ألمانيا إلى مزيد من الضغوط " .

وفي غضون ذلك كان منتصف الليل قد حل، ولكن هتلر أمر بالاتصال بقائد سلاح الطيران الألماني هيرمان غورنغ Hermann Goring ووزير الحربية بلومبيرغ Blomberg ليحضرا هما أيضاً إلى مدينة بايروت. وأبلغ هتلر المجتمعين (من قادة الدولة والجيش) قراره القاضي بمساعدة ودعم فرانكو، وطالبهم أن يدخلوا في التفاصيل، بأقصى ما يمكن من السرعة، وأن يباشروا تنفيذ ما أسمى "بقرار فالكور" Walkür وهو أسم مقر هتلر في مدينة بايروت، ثم منحت العملية اسماً رمزياً وكان " نهوض النيران الساحرة".

والمسألة الأساسية الآن هي: سرعة تجهيز المعدات المطلوبة، وكان هتلر مفتوناً بالفكرة بأسرها، إذ لأول مرة يحدث في تاريخ الحروب، نقل جيش كامل إلى ميدان القتال، وتم تعيين قائد سلاح الطيران الألماني غورنغ كمسؤول أول عن تنفيذ العملية.

في الساعة 130 الواحدة والنصف من فجر يوم 26 / تموز، كانت المحادثات قد انتهت وبيرنهارد يحمل معه وعداً من هتلر، أن ليس فقط الطائرات العشرة التي تمنها فرانكو، بل عشرين طائرة ستطير إلى مراكش الأسبانية، وأن مساعدات لاحقة ستكون من نصيبه، وأن أثمان جميع هذه المعدات ستسجل كديون.

وهرع بيرنهارد ليبرق إلى فرانكو بالإسبانية: Todo va bien وهو ما يعني، " كل شيء يسير بصورة جيدة " وفي 28 / تموز كان بيرنهارد يقف شخصياً أمام فرانكو ليبلغه رسالة هتلر، وهجم فرانكو على بيرنهارد وبأخذه بكلتا يديه وليقول له: " شكراً ... أنني سوف لن أنسى هذا قط " وبعد ثلاثة أيام حطت في تطوان الطائرات الألمانية، وهكذا أصبح لفرانكو سلاحه الجوي.

وفي تلك الساعة كانت طائرات اللوفت هانزا من طراز U52 يونكرز التي جلبها بيرنهارد من ألمانيا إلى تطوان تطير فوق جبل طارق باتجاه سيفيليا وهي تحمل على متنها 41 جندي مراكشي نظامي بكامل سلاحهم وتجهيزاتهم العسكرية، مع العلم أن الطائرة مصممة أصلاً لتتسع 18 راكباً فقط، ولكنها عدلت لهذه الغاية.

الجسر الجوي الأول في التاريخ قد أفتتح إذن، وفي غضون أسابيع قليلة نقل هذا الجسر 13528 جندياً و270 طناً من المعدات الحربية من تطوان إلى أسبانيا. وعن هذا الإنجاز الرائع (في وقته) قال هتلر لاحقاً: " علينا أن نقيم تمثلاً للطائرة يونكر U52 " وبدا من

الواضح أن النصر لم يكن بوسع فرانكو أن يحققه بدون المساعدة والحملة الألمانية والإيطالية، أما فيلي برانددت Willy Brandt فقد علق قائلاً قائلاً: " بدون الألمان والإيطاليين ومساعداتهم لم يكن بوسع فرانكو بدء الحرب أساساً"، ثم أن الجنرال فرانكو طار بنفسه في 6 / آب سيفيليا، ومن هناك أصدر أوامره بالزحف نحو الشمال للالتقاء مع المتمردين ضد الجمهورية بقيادة الجنرال مولا ومن ثم الزحف مشتركاً إلى العاصمة مدريد. (14)

أستلم العقيد ياغوي Yague القادم مع فرانكو من مراكش، وهو ضابط محارب قديم معروف بشجاعته، ولكن بوحشيته أيضاً، الأوامر بمنح القوات التي يقودها حرية القتل، وممارسة أعمال السلب والنهب واغتصاب النساء طالما أنهم يطيعون أوامره بلا تردد أو تسائل، وجعل شعاراً لوحداته " يحيا الموت " .

ابتدأ الزحف نحو الشمال، السيارات الشاحنة تحمل الكتائب والجنود، وكانت القرى والبلدات التي تبدي المقاومة، تسحق بقسوة، وتعرضت الكثير من القرى للقصف بواسطة الطائرات أو بالمدفعية، وكان يطلب من السكان المدنيين، بواسطة مكبرات الأصوات، رفع الأعلام البيض وفتح أبواب دورهم.

وكان كل من خدم الجمهورية أو حمل السلاح أو خبأه، يعدم رمياً بالرصاص من قبل الجنود المراكشيين. وكان على الشباب أن يخلعوا قمصانهم وإذا شوهدت آثار ضغط على أكتافهم، فتلك آثار حمل السلاح على الكتف فتثبت إدانته بالمقاومة وإطلاق النار، فيقتلون فوراً برصاص فرق الإعدام. كما أجاز اغتصاب النساء.

أما الجنرال كوبيو، صاحب المآثر الإذاعية، والذي كان مديراً للقسم الإذاعي، أعلن في 23 / تموز، عبر إذاعة سيفيليا : " أن رجالنا الشجعان، من الكتائب والنظاميين يثبتون للجبناء الحمر كيف يكون الرجال، وقد أثبتوا ذلك أيضاً لنساء الحمر، هذه هي مبادئ الشيوعيون والفوضويون في الحياة الحرة، وعلى نساءكم أن يتحملوا ذلك، بل أن يكونوا للرجال الأفضل " .

وأسوء فظاعات الحرب الأهلية، حدثت عندما زحف جنود العقيد ياغوي مسافة 300 كيلو متر في هجوم صاعق. وفي 14 / آب وصلوا إلى مدينة باداجوز بالقرب من الحدود البرتغالية، وجوبهوا بمقاومة من 8000 من رجال الميليشيات المدافعين عن المدينة. وفي أولى الهجمات التي قام بها الكتائبيون وهم يصرخون " عاش الموت "، كانوا يركضون نحو أسوار المدينة وهم يطلقون الصيحات، فقتلوا جميعاً ولم ينج منهم سوى ضابط واحد و18 جندياً، ولكنهم استطاعوا القيام بالتفاف من جهة أخرى ودخلوا المدينة ودمروا وقتلوا كل شيء كان يتحرك.

أما الأسرى، فقد أخذوا إلى ميدان المعركة وأطلقت النيران عليهم وقتلوا جميعاً، استمرت أعمال القتل أسبوعاً كاملاً، أما بعض الجمهوريين الذين حاولوا الهرب بالعبور إلى البرتغال، فقد أعيدوا من الحدود ليلاقوا ذات المصير.

ولما سأل صحفي أمريكي العقيد ياغوي عن سبب هذه المجررة التي قتل فيها ما لا يقل عن 1800 شخص، أجاب العقيد قائلاً " وهل ينبغي أن أجز ورائي سجناء حتى أن أصل إلى مدريد ؟ " .

ومن كان يرفع صوته ضد هذه الفضائع، إنما كان يقامر بحياته، فشاعر أسبانيا العظيم فدريكو غارسيا لوركا Federico Garcia Lorca كان قد فوجئ بالتمرد في مدينة غرناطة، وهو المؤيد المسالم للجمهورية، كانت لديه المبررات الكافية أن يخشى الفاشست، وهو الذي كان قد كتب شعراً عن مذابح الكتائب :

إن جماجمكم من الرصاص لذلك أنكم لا تكون أبداً ...

لذلك حاول لوركا الهرب إلى منزل صديقه الشاعر لويس روزاليس Luis Rosales العضو في فرقة (الفرسان السود) وهي منظمة متعاطفة مع الفاشست، لكن دورية فاشستية عثرت عليه، فأعدم رمياً بالرصاص في مكان يبعد عشرة كيلومترات عن المدينة.

وتواصل زحف العقيد ياغوي صوب العاصمة مدريد، ففي 3 / أيلول احتل مدينة تالافيرا، وهي آخر مدينة كبيرة قبل مدريد، ولم ينجح المقاتلون العشرة الآف من مقاتلي الميليشيات الدفاع عن الجمهورية من إيقاف الجنود المراكشيين.

وكان المتطوعون للدفاع عن الجمهورية شباناً لم يتلقوا تدريباً ولم تكن لديهم قيادات، وغالباً كانوا بدون سلاح. ويكتب الكاتب البريطاني جورج أورول George Orwell الذي كان عمره آنذاك 33 سنة، ولم يكن في ذلك الوقت معروفاً بعد، كتب عن الجنود الذين كانوا مسلحين ببنادق ماوزر من طراز 1896 Mausor ولم يكونوا يعرفون كيف تستخدم، ورغم ذلك فأنهم تطوعوا وأرسلوا إلى الحرب، فقد كتب أورول : (15)

" كنا نضحك على أحوالنا، فقد كنا أشبه ما نكون بقطيع من الأغنام. فهؤلاء من نسميهم رجالاً، ما كانوا سوى أطفالاً، أكبرهم كان في السادسة عشر من العمر. وكنا ننظف بنادقتنا بزيت الزيتون، هذا إن وجد ...!

وهؤلاء الميليشيون، كانوا يجهلون استخدام سلاحهم، ولا يريدون أن يتعلموا..! ولم يكن هذا يتناسب مع إرادة القتال عندهم، وعندما لا تكون لديهم الرغبة في القتال، أو عندما يشناقون إلى ذويهم، يذهبون ببساطة إلى بيوتهم، ومع ذلك فقد استمروا ومنذ بداية الحرب باستلام 10 بيزينات يومياً، وهم بذلك كانوا أغنى الجنود المستجدين في أوربا " .

وبينما كان العقيد ياغوي يزحف شمالاً إلى مدريد، زحف الجنرال مولا إلى مقاطعة الباسك، وفي معارك دامت 4 أسابيع تمكن من عزل المقاطعة الجمهورية الشمالية عن الحدود مع فرنسا.

ومن المعارك التي اعتبرها الفاشست بطولية في الحرب الأهلية، وقائع القتال حول الكازار في طليطلة Al Cazar – Toledo ، وكان القائد المحلي في طليطلة، وهو العقيد جوزيه موسكاردو، قد أعلن موقفه ضد الحكومة في مدريد التي أرسلت إلى هناك جماعات متعددة من الجنود والشرطة والميليشيا بقيادة الجنرال مانويل ريكولما Manuel Riquelme في سيارات تاكسي وشاحنات إلى المدينة غير المسورة تاجو Tajo.

وكان يقود الحامية العقيد موسكاردو، وتعدادها حوالي 1200 رجل، من طلاب الكلية العسكرية والجندرمة وميليشيات الكنائس وكان هناك تحت قيادته أيضاً 500 مدني بضمنهم راهبات و200 طفل وأكثر من 100 من اليساريين وكان قد أخذهم كرهائن.

وفي صباح يوم 21 تموز أعلن عن قيام حكومة الكازار، ورفض كافة العروض التي تقدم بها الجنرال ريكويلا لتسليم نفسه ومن معه قائلاً: " سيكون عملاً لا ينطوي على الشرف إذا سلم نفسه إلى الرعاع الحمر".

قاومت قلعة الكازار الهجمات العنيفة التي قام بها محاصريها، وتجاوزت قيمتها العسكرية إلى الرمزية، إذ قاتل الجانبان قتالاً مريراً من أجلها.

أستلم الجنرال ريكويلا الأوامر من مدريد، بنسف وتقويض القلعة، فإن بقائها صامدة ستمثل عاملاً في تقوية معنويات المتمردين الفاشست، في زحفهم، وقد حاولت قوات الجمهورية أن تحطم مقاومة القلعة بالقنابل والغازات المسيلة للدموع، وبفدائف البنزين المحرقة، وبالقنابل اليدوية الشديدة الانفجار وبمدفع 155 ملم جاءوا به من مدريد، ولكن جدران القلعة القديمة، المشيدة في العصور الوسطى، من الصخور صمدت أمام هذه المحاولات. أستمر الحصار لمدة تزيد على الشهر، فأجرت النائبة الاشتراكية مار غريتا نيلكن بسكان الجبال الأستوريين قائلة لهم " إنني أحتاج مساعدتكم، لا بد من نسف قلعة الكازار".

تمكن الأستوريون المحليون من إدخال 5 أطنان من الديناميت في أنفاق تحت القاعة، وفي 17/ أيلول أذنت الحكومة بتفجير الكازار. وفي اليوم التالي، أخليت المدينة القديمة، ووقف 2500 من مقاتلي الميليشيات، لاقتحام أطلال القرية، كما جاء المراسلون الصحفيون والمصورون من مدريد، إذ لم يكن أحد يريد أن تفوته مثل هذه المناسبة.

وفي 18 / أيلول/ 1936 وفي تمام الساعة 631 (السادسة وواحد وثلاثين دقيقة صباحاً)، انفجرت قلعة الكازار في فرقة جهنمية اهتزت لها الأرض في جميع أرجاء مدينة طليطلة، واختفت المدينة في غيوم هائلة من الدخان.

ولما انجلى كل ذلك، تبين أن القسم الجنوبي الغربي من القلعة قد تحولت إلى أطلال، أما الجدران الداخلية التي يبلغ سمكها متراً، فقدت صمدت. أما القلعة نفسها، فقد قتل فيها خمسة رجال فقط وواصلت حامية القلعة قتالها ببسالة. وبعد أربع ساعات أوقف الجمهوريون هجومهم.

وكانت طلائع جيش فرانكو الأفريقي على بعد 40 كيلومتراً من طليطلة، عندما أمرهم فرانكو بالتوجه إلى الكازار ونجدة المدافعين عنها، وإن كاف هذا الأمر إيقاف الهجوم على العاصمة مدريد. وفي 27/ أيلول، هاجمت قوات فرانكو مدينة طليطلة، ولم يأخذوا أسرى، وهام أفراد الميليشيات على وجوههم هرباً، أما الجمهوريين الجرحى، فقد تم الإجهاز عليهم وذلك بقتلهم بالحرايب. وكان 40 من الفوضويين قد تمترسوا في معهد اللاهوت التابع للكنيسة وأشعلوا النيران حتى لا يقعوا أسرى بيد الفاشست، فقضوا حرقاً بالنيران. أما العقيد موسكاردو، فقد أبلغ محرريه " ليس لدي أمر فوق العادة أبلغكم به" ومن الطبيعي أن موسكاردو أعدم الرهائن ال 500 الذين أخذهم إلى القلعة منذ بداية الحصار.

أخيراً حررت أطلال قلعة الكازار، ولكن الجمهوريين ربحوا الوقت من أجل تهيئة الدفاع عن مدريد، وبعد أربعة أسابيع بدأ القتال الدامي من أجل العاصمة.

كان العمال والفلاحين الذين يرتدون ملابس الميليشيا، يحملون بأيديهم المجارف والمذاري(16) وقد توفرت لبعضهم البنادق وهم يحملونها لأول مرة في حياتهم، ولم تكن هناك فرصة للمقارنة بينهم وبين المجندين المدربين على خوض المعارك. وعن ذلك فقد كتب المراسل الصحفي الأمريكي كوكس COX " هؤلاء الرجال ليسوا بحاجة إلى الشجاعة، فهذا ما يعترف به حتى أعدائهم، ولكنهم في ساحات القتال أمام الجنود يشعرون بأنهم يقاتلون بلا أمل أمام هجمات أعدائهم، والكثير منهم كانوا من الفلاحين البسطاء، وكانوا من شدة فضولهم وبساطتهم يذهلون لرؤية أي سيارة، وكأنها من عجائب الدنيا، فكيف لمثل هؤلاء أن يقاتلوا الدبابات وأن يصمدوا أمام نيران الرشاشات " .

لم يكن فرانكو يشك في سقوط سريع للعاصمة مدريد، وقد أستعد لذلك بتهيئة استعراض عظيم للنصر يكون هو في مقدمته على صهوة حصان أبيض يسير في شوارع العاصمة. أما الجنرال مولا، فقد تباهى وتفاخر بأنه سيتناول قهوته في مولينيرو Molinero وهو أشهر مقهى في مدريد، وكان صاحب المقهى يقوم بحجز طاولة يومياً، ويضع عليها فناجين القهوة حتى تبرد سواء جاء الجنرال أم لم يجيء، على الرغم من أن هدير المدافع قد غدا أمراً خطيراً فعلاً.

وغواني مدريد التي وصفها الكاتب الأمريكي أرنست همنغواي بأنها " عاصمة العالم " اختفين، وحل محلهن صورة غريبة على مدريد، فهي الآن مدينة جبهة، تسير الميليشيات في الشوارع مسلحة في ملابسها العسكرية، وفي الباصات الحكومية ذات الطابقين، تتساقط القنابل في الضواحي، وتقترب من مركز المدينة وتحرق البيوت. وكان البشر يتخبطون بدمائهم ويموتون، المارة يملكهم الفضول لرؤية الطائرات وهي تهاجم ربات البيوت اللواتي خرجن لشراء الحاجيات البيئية من الطعام واللوازم .

ولكن مدريد احتفظت بفخامتها ليلاً، فالإعلانات الضوئية كما هي في السابق في الشوارع، وأفراد الميليشيات من الحراس يتجولون، الفتيات اللعوب كن يتغازلن في الشوارع، وكان القتال يتوقف في فترات قليلة ما بعد الظهر.

ويكتب مؤرخ الحب الأهلية فرانترز بوركيناو Franz Borkenau " كان الجانبان يحترمان الكثير من التقاليد الأسبانية، وكانت المحلات والسينمات تفتح أبوابها وتمتلأ بالناس، وكانت أحدث صيحات هوليوود موجودة في أسبانيا كالأغاني، وعلى الأرصفة كانت النساء المسنات اللاتي يرتدين السواد ما زلن يزاولن بيع بطاقات اليانصيب التابعة للدولة، وبدلاً من الصليب وباقات الزهور، أخذن ببيع شارات تحمل المطرقة والمنجل و بدلاً من الأمشاط المصنوعة من ظهور السلحفاة، قبعات الفوضويين السوداء والحمراء. "إلا أن سكان العاصمة بدؤوا يفقدون صبرهم، وهم الذين عرف عنهم التأدب والتهديب والتسامح، ولم يعودوا يسقطون من حسابهم وقوع الهجوم على مدينتهم التي كانوا يعيشون فيها بسلام .

ومع توالي واستمرار مظاهر حياة الحرب، أدرك المدريديون، أن الحرب هي مسألة جدية وها هي تطرق أبوابهم، وأخيراً سمعوا شعار " أستفيقي مدريد " وبدأت حجارة الشوارع تقلع من أجل بناء المتاريس، أما النسوة اللعوب، فقد كان أزيز الطائرات وصفيها، أعلننا لهن يبدأ المخاطر. ويعلو صوت النائبة الشيوعية دولوريس إيباروري Dolores Ibarruri

وهي عاملة من مقاطعة الباسك، الملقبة باسيوناريا، بندائها اليومي الشهير من إذاعة مدريد :
No Pasaran : لن يمروا ..

وقد عاشت الجمهورية في هذه الأسابيع تحولات كبيرة، ففي مدريد تشكلت حكومة اشتراكية بالمساهمة مع النقابات UGT استلمت مقاليد الحكم، وبذلت اهتمامها بتوزيع المواد المعيشية وكل ما أستولت عليه من الكتائبين الفاشست، ونظمت الميليشيا، وقامت بتخفيض الإيجارات إلى النصف، وتم محو أمية 100,000 مجند في المدارس العسكرية.

وقد تحقق تعاون بين الاشتراكيون ومنظمة الفوضويون CNT وهم خصوم الأمس، وأمت الشركات وافتتحت مطاعم التعاونيات، التي كان العمال يدخلونها ويخرجون وقد شعبوا، قياساً إلى أوضاعهم السابقة. وقد عين أحد الفوضويين وزيراً للعدل، وهو غارسيا أوليفر، Garcia Oliver الذي كان قد أدين عدة مرات بالإرهاب. وقد قيل بهذه المناسبة " للمرة الأولى يحدث في أسبانيا، أن مجرماً لم يعد عدواً للمجتمع، بل ويحترم أكثر من ضحاياه".

واستلمت منظمات الشباب اليسارية نادي غران بينا Gran Pena وهو من أشهر نوادي المحافظين كمقر لهم، أما في فندق ريتز الأنيق فقد حول إلى مستشفى عسكري، وتحول فندق بالاكا إلى مأوى لإسكان الأيتام.

في برشلونة، أستلم الفوضويون مواصلات الترام وكانوا يتقاسمون أرباحه ودكوا في كتالونيا مصنعاً حربياً، ولكنهم بالمقابل منحوا اهتماماً كبيراً للتعليم، فقد ارتفع عدد الطلاب في برشلونة من 34,000 تصاعد إلى 116,000 .

والمظهر العمالي في الملابس لم يكن شيئاً ثانياً، بل كان التزاماً وكان ارتداء ربطة العنق، أمراً مشيناً، وصحيفة الفوضويين سوليداريداد أوبريرا Solidaridad Obrera عيرت وزير الخارجية السوفيتي بالبورجوازين لأنه كان يرتدي قبعة.

وعدا الكاتدرائية فقد قام العمال بحرق 58 كنيسة، إلا كنيسة واحدة صمدت برغم ما ألقوا عليها من مواد حارقة، لأنها كانت مشيدة من الأسمنت.

وأحتل الفوضويون بقيادة أحد مشاهيرهم دورتي Dorrti ، نصف مقاطعة أراغون، وأسوا هناك مجتمعاً على النمط الذي يسعون إليه، ومن هناك صرح دورتي لمراسل صحيفة البرافدا السوفياتية كومتسوف: " سنريكم أيها البلاشفة كيف نعمل الثورة" وقد ألغى الفوضويون النقود، والملكية الخاصة، وأغلقت البارات والمقاهي، إذ أعتبرت وسيلة مضررة للمتعة وقضاء الوقت .

وفي برشلونة أسس الأشتراكي الماركسي بوم Pum حركة اجتماعية مثالية (طوباوية) من العناصر المطرودة من الحزب الشيوعي، وأتخذ من إحدى الفنادق مقراً لهم وهو فندق فالكون وكان أبرز قادتهم: نين Nin وغوركين Gorkin و أندرادا Andrada وجيرونيلا Gironelle ، ومن هناك طالبوا بتأسيس جمهورية بروليتارية، وقد نظم بوم في منظمته يساريون أجنب، منهم شاب ألماني قدم من النرويج ويدعى فيلي برانندت (لاحقاً مستشار ألمانيا الاتحادية وزعيم الحزب الاشتراكي الألماني)، والذي عاش معهم بضعة أشهر مطلع عام 1937 في صيف الفوضويين القصير في برشلونة .

وحكومة مدريد كانت تبحث عما يجب فعله إزاء الرغبة المتصاعدة في الاستقلال الذاتي للمقاطعات التي تكون أسبانيا، فالكل يريد أن يستقل مالياً، ومن ثم يحاول تأسيس ما يعتقد أنه مناسباً لعقائده. وكانت مقاطعة الباسك وكذلك أستوريا وفينيسكايا، طالبوا بالحكم الذاتي، بل والجهة الشعبية في أستوريا وزعت بياناً أن أسبانيا حمراء تشع أنوارها جاء فيه: " أن أسبانيا هي ضياء للعالم بأسره".

والجهة المقابلة الأخرى كان لها شعاراتها ومشاكلها وثغراتها، وحسب ما أعلن السياسي اليميني الفاشي جوزيه ماري بيغان:"إننا نقاتل من أجل وحدة الوجود، من أجل روما، ومن أجل أوروبا، ومن أجل كل العالم، إننا نخوض الحرب الصليبية في القرن العشرين من أجل الحضارة المسيحية".

وكانت الجمهورية تسيطر على 14 مليون نسمة من مجموع سكان أسبانيا البالغ عددهم 24 مليون نسمة، أما على الأرض، فقد كان الجمهوريون يسيطرون على الثلثين من مساحة أسبانيا، مقابل ثلث للفاشست.

وكان الجنرال القصير القامة(فرانكو) يحتل المرتبة السادسة في سلسلة تدرج الرتب، أي بعد سانجوريو ومولا وغوديد والآخرين، ولكن جيشه الأفريقي، أحرز نجاحات كبيرة وهو الذي دبر أمر المساعدات الأجنبية، وكان فرانكو واقعياً بالمقارنة مع الآخرين، فقد صرح في شهر آب: "إن القتال قد يطول أكثر مما يعتقد الناس ولكننا سننتصر في النهاية.

والفاشيون أقسموا اليمين على علم جديد، ففي 15 / آب أعلنوا عن علم أسبانيا الجديد: الأصفر والأحمر وذلك من شرفة بلدية سفيليا، حيث قبل فرانكو العلم وسط هتاف المتجمهرين قائلاً: " هذا هو علمنا المغطى بالمجد مائة مرة، وقد أقسمنا له جميعاً من أجل ما مات لأجله آبائنا".

ثم تحدث الجنرال ميلان أستراي Millan Astray وهو مؤسس الفرقة الأجنبية في الجيش الأسباني. والجنرال أستراي كان من أبرز الشخصيات في جبهة الفاشست. نحيف، فظ كان قد قاتل من أجل أسبانيا في الفلبين ثم خدم في الفرقة الأجنبية الفرنسية ثم أسس مثلها في الجيش الأسباني وقاتل بفرقته في جميع المعارك التي جرت في مراكش. وعندما حدث الانقلاب المعادي للجمهورية كان في الأرجنتين لكنه عاد على الفور إلى أسبانيا.

وهذا المحارب القديم كان قد جرح عدة مرات في الاشتباكات التي خاضها والتي فقد فيها إحدى عينيه وإحدى ذراعيه وعدد من الأصابع في الذراع المتبقية، وها هو الآن يلقي خطاباً من الشرفة على الناس وعلى جنوده مبتدأ خطابه بجملته المشهورة: Viva la Muerte " يحييا الموت"، ثم ليقول " فليأت الحمر ... الموت لهم جميعاً".

ولمن كان هناك رجل في معسكر الفاشست، تجاسر ووقف بوجه الجنرال أستراي، وهو ميغويل دي أونامونو، البروفسور العجوز عميد جامعة سلامانكا. والبروفسور كان متعاطف أصلاً مع الانقلاب، بل وكان قد تبرع بالمال أيضاً من أجل: "نضال الحضارة ضد الظلم والتعسف" ولكنه شعر بالاشمئزاز من الإرهاب الفاشي الدموي وشعاراتهم المبتذلة البذيئة التي أحترقها كمتقف. (17)

في 12 / تشرين الأول، احتفلت الشخصيات البارزة التي اختارت مدينة سلامانكا كمقر لقيادة التمرد الفاشستي في مبنى الجامعة بمناسبة اليوم السنوي لاكتشاف القارة الأمريكية بواسطة الأسباني كولومبوس، ومن أجل أسبانيا.

وفي هذه المناسبة القى الجنرال ميلان أستراي خطاباً وهو الذي كان يستغل كل مناسبة من أجل عرض ما تريد الفاشية عرضه. وفي خطابه أدعى أن أكثر من نصف الأسبان هم مجرمين وخونة. ووصف مقاطعة الباسك وكاتالونيا بأنها كالسرطان في جسم الأمة وإن اللحم الصحي هو الأرض واللحم المريض هو الشعب وإن الفاشية والجيش سيقومان بالإصلاح اللازم وتقديم الأرض كمنحة مقدسة.

وتعالى هتاف الحاضرين " يحيا الموت " ثم رفعوا أذرعهم بالتحية الفاشية وهم يصرخون: فرانكو .. فرانكو .. فرانكو .

وهنا نهض عميد الجامعة وساد القاعة صمت الموت عندما بدأ البروفسور الحديث:

" أريد أن أقول شيئاً بالنسبة إلى الخطاب، لنسميه هكذا، الذي ألقاه الجنرال ميلان أستراي. لندع الإهانة الشخصية جانباً وأنا الذي ولدت في بلباو الباسكية وأسقفنا كان كاتالانياً من برشلونه. ولا أدري إن كان هذا سيسمع برحابة صدر أم لا .
ها أنا أسمع صيحات مجنونة " ليحيا الموت " .. وأنا الذي أمضيت سنين أعمل في التناقضات واللامعقول، أقول لقد صدمني هذا اللامعقول. وإذ أجد نفسي بين المتحدثين، فأنتي أريد أن أوضح شيئاً إن الجنرال ميلان أستراي قد قرر بنفسه بأنه رمز للموت.. والجنرال أستراي هو من ذوي العاهات، ولسوء الحظ يوجد اليوم كثير وكثير جداً من ذوي العاهات في أسبانيا، وقريباً سيكونون أكثر إذا لم يرحمنا الله. هنا يحاول واحداً من ذوي العاهات أن يبسط سؤالاً وجيهاً يشبكه في محيطه، الجنرال ميلان أستراي يريد أن يصنع أسبانيا جديدة على صورته هو، لذلك فهو يريد أسبانيا معوقة وهو ما أوضحه لنا بشكل لا يقبل الالتباس " .

وإلى هنا لم يستطع الجنرال أن يتحمل، فهتف مزمجرأ " الموت للمتفقين " انفجرت خلفه عاصفة، وألنف أتباعه حول بظلم الذي أهين، وآخرين وقفوا أمام منصة عميد الجامعة، البروفيسور أونامونو الذي تابع خطابه:

" هذا هو معبد للعلم والتعلم وأنتم خرقتم قدسيته، ستكسبون ولكنكم لن تنتصروا، ستكسبون لأنكم تمتلكون العنف المجرد ولكنكم سوف لن تنتصروا لأنكم ومن أجل النصر، فالقناعة والإيمان ضروريين. ومن أجل القناعة يجب أن يكون لديكم ما تفتقدونه، وهو التفهم والحق في هذا النضال. ومن واجبي القول، إنه أمر عديم الجدوى لفت أنظاركم أن تفكروا بأسبانيا، ليس لدي ما أقول أكثر. " .

وقبل أن تهجم أيادي الكتائبيين، تمكن أحد الأساتذة من سحب البروفسور أونامونو إلى خارج القاعة وإنقاذه. (18)

وفيما بعد، أقصي البروفسور عن وظيفته وفرضت عليه الإقامة الإجمالية في منزله. وبعد أسابيع قليلة أصيب بجلطة في قلبه. وألتحق نجله بمليشيات الجمهوريين قبيل وفاة والده، الذي كان وصف المتمردين الفاشست بنظام الإرهابيين والحمقى.

وفي تموز، أسس الجنرال مولا في بورغوس طغمة من الجنرالات الفاشست القيايين. وبرغم أن تسلسل فرانكو بين الجنرالات، كان الثالث، إلا أنه حاز على أكثرية الأصوات ونصب رئيساً للحكومة المؤقتة، وهو بنفس الوقت رئيساً للدولة، أما نيكولاس شقيق فرانكو، فقد أكتشف رتبة عسكرية جديدة لشقيقه وهي "الجنراليسيمو" ثم أنه منح نفسه "إضافة للرتبة العسكرية" لقب كواديللو Caudillo أي الزعيم. وجرت الاحتفالات بتلك المناسبة.

وكان إلى جانب الجيش النظامي الذي يقوده فرانكو، عناصر منظمة الكتائب الفالانج Flange الذين بلغ تعدادهم 75,000 رجل، ثم بلغت المليون في نهاية عام 1936.

وكان فرانكو يحتاج قبل كل شيء إلى الجنود، ولكنه بعد فترة قصيرة أضطر نتيجة الخسائر العالية في صفوف الضباط، إلى تعيين ضباط مؤقتين، وهكذا شاعت جملة "ضباط مؤقتين - جنث مؤكدة" ، أما الجيش النظامي فقد بلغ تعداده إلى 200,000 جندي وضابط.

واستعادت الكنيسة سلطاتها (في المناطق التي يسيطر عليها الفرانكويين) فقد جرى تعميم كافة الأطفال في الكنيسة، ولم يعد الزواج المدني وكذلك الطلاق مسموحاً به، والذهاب إلى الكنيسة كان إجبارياً، كما صرح أحد القساوسة: إن على الجميع الذهاب إلى الكنيسة أيام الأحاد وبدون استثناء، ولا يقبل أي عذر.

وطراز الملابس الذي كان مقبولاً، لا بد أن يكون طويل الأكمام وهو أمر إلزامي، أما "الديكولتيه"، العاري الذراعين، فقد أختفي نهائياً، فيما فرض حتى على الأطفال الذين تجاوزوا السنين من العمر، ارتداء ملابس سباحة طويلة عند ظهورهم على الشواطئ، وأصبحت السلطة الروسية تدعى بالسلطة الوطنية! (السلطة).

أما الذي كان يستعمل كلمة Salud للتحية (وهي في الظاهر كلمة تحية درج اليساريون والقوى المعادية للفاشية استخدامها وهي تعني كلمة سلام) كان يعرض نفسه لاستجواب الشرطة ما لم يقدم للمحاكمة. لذلك فإن الإعدام رمياً بالرصاص كان مستمراً وإن كان ليس بنفس الدرجة مثل الأسابيع الأولى، والآن فإن الإعدام يجري بموجب أحكام صادرة عن محاكم الطوارئ والحاكم (القاضي) هو على الأغلب شاب برتبة ملازم. وكانت أحكام الإعدام تصدر لاعتبارات تافهة مثل إطلاق النار على الأرناب. ويروي المؤرخ هوغ توماس Hugh Thomas في ساراغوسا حيث أعدم حائوتي (من يقوم بدفن الموتى) لأنه قام بدفن جنث بعض عناصر الفاشست الذين قتلوا أو أعدموا في عهد سيطرة الجمهوريين على المدينة.

وكانت مستوى الحياة في مناطق الفاشست أفضل منها في مناطق الجمهورية. كما كانت قيمة اليزيتا(العملة الأسبانية) في مناطق فرانكو ضعف قيمتها في مناطق الجمهوريين. وكانت العملة الورقية تحمل في البداية أختام حكومة فرانكو، ما لبثت أن طبعت عملات ورقية جديدة في ألمانيا، مع أن حكومة فرانكو كانت تسيطر على مساحة أراض أقل وكذلك عدد السكان والصناعات. ولكن حكومة فرانكو كانت تتلقى الدعم من الأثرياء ومن البنوك والوجهاء،: ما أطلقت النداءات بالتبرع بالذهب والمجوهرات، وطرح شعار: " لا تقدم يدك(للمصافحة) لمن لا يزال يحمل خاتماً أو حلقة في أصابعه، إنه ليس أسبانياً " .

ورواد المطاعم كانوا يدفعون ثلاثة أضعاف ثمن الوجبة الواحدة، والتمن المضاعف يسيل إلى خزانة الدولة ولكن العامل الحاسم: كان يتمثل بالدعم الخارجي (في المجال الاقتصادي)، وكان حلفاء فرانكو في برلين وروما الذين لم يكونوا ليدعوا مغامرتهم الأسبانية بحاجة إلى المال بعدما ضحوا بالآلاف من أرواح مواطنيهم من أجل قضية الفاشست الأسبان.(19)

وبرر هتلر تدخله في أسبانيا لاحقاً، بأن: " بلداً يضم أقدم ثقافة في أوروبا قد تعرض للخطر" لذلك قرر موقفه على هذا الأساس ولبي رجاء فرانكو بالمساعدة " وبذلك لم نكن نحمي أوروبا من كارثة محدقة مماثلة لما يجري في أسبانيا، بل وحماية لوطننا" .

وهكذا دخلت ألمانيا في مغامرتها في اللعب بالنار، وأمر مارشال الرايخ، قائد سلاح الطيران غورنغ بالتدخل في أسبانيا بعد يوم واحد من أمر هتلر، إذ أمر بتأسيس " هيئة الأركان W بقيادة الجنرالين ميلش Milch وفيلبرغ Wilberg التي احتفظت بسريتها المطلقة، وتولت تنظيم ضخ المساعدات العسكرية الهائلة إلى فرانكو.

وكما أفاد غورنغ فيما بعد في نورنبرغ حيث انعقدت المحكمة الدولية لمحاكمة مجرمي الحرب إذ قال " لقد سعدنا بتجربة أسلحتنا بالعتاد الحقيقي" والمساعدة التي انبثقت بوادرها في تطوان قد ارتقت إلى مستوى المبعوثين الخاصين من رفاق في الحزب النازي وتاجر من طراز برنهارد، الذي أسس في تطوان شركة بأسم: شركة النقل الأسبانية - المراكشية المحدودة تطوان /سيفيليا ، التي أخذت على عاتقها مهام إيصال المعدات العسكرية القادمة من ألمانيا إلى أسبانيا، ورصدت ثلاثة ملايين مارك بإيعاز من الحزب النازي إلى وزارة المالية الألمانية بأسم (شركة المواد الخام والبضائع) من أجل مبادلة الأسلحة والمعدات بالمواد الخام الأسبانية، بخامات المعادن قبل كل شيء ، وشحنها إلى ألمانيا.

وقد عادت هذه الفعاليات على التاجر برنهارد بالتكريم والأوسمة والجنسية الأسبانية ومكافآت نقدية طائلة. وفي 31 / تموز غادرت سفينة الشحن أوزارامو Usaramo ميناء هامبورغ الألماني وهي تحمل الطائرات والمدافع المضادة للطائرات والقنابل و86 شخصاً متكرين بهيئة تاجر وميكانيكيين ومصورين، ولم يكونوا في الحقيقة سوى عناصر عسكرية تابعة لسلاح الجو الألماني. بيد أن حادثاً مؤسفاً حدث أثناء إقلاع السفينة، إذ سقطت إحدى الصناديق من الرفاعة التي يفترض(من أجل ضمان سرية العملية) أنها تحمل بضائع عادية، فتحطم الصندوق وتدرجت قنبلة كبيرة من قنابل الطائرات على رصيف الميناء.

وفي سلاح الطيران الألماني أستلم قادة الأسراب في دورتموند ومارزيبورغ وغوتا وأنزباخ الأوامر بتهيئة عدد معين من الطيارين وأفراد الصيانة الأرضية في مهمة سرية والحضور إلى مقر السرب المقاتل ريشتيوفن في قاعدة دوبريتز قرب العاصمة برلين، وهناك أوضح لهم الرائد الكساندر فون شيلي بصراحة، وهو رجل ذو خبرة في أميركا الجنوبية، وأحد المساهمين في الحرب العالمية الأولى، أوضح لهم مهمتهم في أسبانيا، وبأنها سرية لدرجة، ولم يكن مسموح به أخبار زوجاتهم عن هذه المهمة. وسيكون عنوانهم البريدي هو: ماكس فينكلر - برلين - صندوق بريد ...

وابتداء من نوفمبر / 1936 لم تعد الأمور سرية تماماً، إذ بدأ يطفو أسم وحدة الكوندور Legion Condor (وهو الاسم الذي منح للتشكيل العسكري الألماني العامل في أسبانيا)، التي شكّلت من نخبة من أفضل الرجال بكل ما تعنيه هذه الكلمة.

وطلب من الطيارين عدم ارتداء ملابسهم العسكرية، وكانوا يقبضون 200 مارك كمصروف شخصي لهم، ثم يستلمون ضعف رواتبهم التي كانت قد رفعت. ويعلق أحد الضباط الألمان: "أن أي شاب من عشاق العمل من العسكريين لم يكن يفوت مثل هذه المغامرة"، بيد أن للمغامرة وجهها الآخر، إذ لم يعد جميع الذين ساهموا في الحرب الأهلية من الضباط والجنود الألمان، كما كتب فيما بعد على شواهد قبورهم في أسبانيا Por Dios y Espana : من أجل الرب وأسبانيا.

من أجل هؤلاء كتب الشاعر الألماني برشت Brecht (20):

شقيقي كان طياراً
أستلم في إحدى الأيام رسالة
حزم حقيبتة
والسفر كان .. "تقدم" .. نحو الجنوب
شقيقي كان غازياً
التوسع: هو ما يحتاجه شعبنا
هو عندنا حلم قديم
وأرض لنحارب عليها
التوسع، وأخي الغازي
يرقدان بنقاء في محيط كوادر (مدينة أسبانية)
بطول متر وثمانين
وعمق متر وعشرين

وأول شيء فعله الطيارون الألمان، هو نقل جنود فرانكو عبر البحر إلى أسبانيا. وفي 13/أب تساقطت أولى قذائف الطيارين الألمان في الحرب الأهلية، في البحر مقابل مدينة ملقا، عندما هاجمت الطائرات الألمانية البارجة الأسبانية جايمي Jaime 1 التي حاولت دوماً إزاع عمليات نقل الجنود من البر الأفريقي إلى أسبانيا. ويقول أحد الطيارين الألمان:

"تسأك .. تسأك .. تسأك .. وانزلت ثلاث قنابل ضخمة من الطائرة، وشاهدنا بوضوح القنابل وهي تنز نحو هدفها، كما سمعنا نتائج القصف من الإذاعة، خسائر كبيرة جداً، مئات من القتلى. أما البارجة، فقد تم قطرها إلى ميناء قرطاجنة وفقدت قدرتها القتالية، واختفت سائر السفن الجمهورية الأخرى من منطقة مضيق جبل طارق، كما توقفت عمليات النقل".

وقد تم زج الطائرات الألمانية ضد أهداف أرضية في أولى صفحات الهجوم على مدريد، كما كان عدد العسكريين الألمان يتصاعد في الوحدة المسماة كوندور التي وصفها أحد مقاتلو الكوندور في رسالة إلى أهله "تزه بأشجار الليمون"، مخترقاً بذلك السرية المفروضة على المراسلات بموجب التعليمات. وكانت الأعداد الجديدة من العسكريين الملتحقين بوحدة الكوندور يبحرون إلى أسبانيا عن طريق ميناء ستيتين Stettin حيث كانت التغطية السرية لمهامهم تتم من بروسيا الشرقية القريبة من هذا الميناء. (21)

وحتى نهاية عام 1936 بلغت قوة وحدة الكوندور بما يعادل فرقة مختاطة من الأسلحة البرية والجوية، فبلغ تعداد القوات الجوية العاملة 4500 رجل و4 كتائب مدفعية مقاومة الطائرات، وطاقم تدريبي الدبابات المسماة إمكار Imker، ووحدات من البحرية من أسطول بحر الشمال، وعناصر للاتصالات والاستخبارات ومعدات حربية من كافة الصنوف مما تحتاجه الحروب. ووقود للطائرات ومعدات صيانتها من الزيوت والشحوم ورجال للملاحة

الجوية وللإسعافات الطبية، وقنابل يدوية، بل وحتى صواريخ للاحتفال بالنصر. وكان يقود هذه القوات الجنرال لويتنانت (اللواء) هوغو شبيرله Hugo Speerle وقد منح أسماً حركياً هو ساندر Sander ولم يكن مسؤولاً إلا أمام فرانكو.

وقد تباحث هتلر مع الدكتاتور الإيطالي موسوليني حول مساعدة فرانكو بالقطعاعات المسلحة. وكان موسوليني لا يقل حماساً وإعجاباً بفكرة القتال في أسبانيا وفي ميله للتوسع والتسلط متطلعاً إلى تقوية "الشخصية الإيطالية في القتال".

وفي هذا الوقت بالضبط تقدم فرانكو برجاء المساعدة إلى هتلر وموسوليني دون أن يدرك كم كانوا هم متعششين إلى التدخل وكم سيكون رد فعلهم سريعاً وتقدم فرانكو برجاء إلى إيطاليا قائلاً " ب 12 طائرة نقل أستطيع أن أكسب الحرب في بضعة أيام".

وقد أرسل الإيطاليون بالفعل طيارون وطائرات، وقد صادفت هذه الطائرات حظاً تعيساً في رحلتها. ففي 30 تموز أقلعت خمسة طائرات مائية من طراز سافويا وثلاث طائرات كابروني من قواعدها من جزيرة سردينيا باتجاه مدينة مليلة المراكشية - الأسبانية، إذ سقطت واحدة من الطائرات المائية في البحر مقابل ساحل شمال أفريقيا، وأخرى من ذات الطراز هبطت اضطرارياً وواحدة من طراز كابروني تعطلت فوق مراكش الأسبانية وسقطت، واثنان أخربتان هبطتا خطأ في مراكش الفرنسية، أما سفينة العتاد موراندي، وخمسة طائرات قاذفة من طراز سافويا، فقد وصلت إلى أسبانيا حيث هيا فرانكو ما يسهل وصولها.

وأقترح موسوليني الذي كان يطمح إلى المزيد من المجد وأكالييل الغار لحكمه في إيطاليا، أقترح على هتلر إرسال فرق كاملة للقتال في أسبانيا، لكن هتلر رأى في ذلك مخاطرة كبيرة، فقد خشي أن يقود ذلك إلى حرب أوروبية لم يستعد لها بعد.

ولكن موسوليني لم يكن بوسعه الانتظار، فقد أرسل في بداية الأمر فرقة من الفاشست "القمصان السود" بقيادة الجنرال ماريو رواتا Mario Roatta ولكن بشرط أن يتحمل فرانكو جزءاً من رواتبهم، وأنهم سوف لن يكونوا تحت تصرف القيادة الأسبانية ويتحملون بأنفسهم مسؤولية زجهم في المعارك.

وهكذا وجد فرانكو إلى جانبه حلفاء مخلصين ومتعششين للقتال، حتى أن الشركات الرأسمالية الكبيرة وقفت إلى جانبه وسعت من أجل انتصاره. فشركة النفط تكساس أويل، أرسلت إليه ما يحتاجه من منتجاتها وسجلت أثمانها كديون، وكذلك فعلت شركة جنرال موتورز وشركة فورد وستودي بيكر التي تولت تأمين السيارات لجيش فرانكو.

وفي المقابل، فإن الجمهورية وإن كانت قد حصلت على الاعتراف بها كحكومة لأسبانيا من جميع العالم، وجدت نفسها في وضع صعب وعسير. ففي بداية التمرد أرسل رئيس الوزراء الجمهورية جيرال Giral برقية بطلب المساعدة إلى رئيس الوزراء الفرنسي الاشتراكي بلوم Blum يقول فيها : -

" بسبب الانقلاب العسكري المفاجئ والخطير، إننا نرجوك مساعدة عاجلة لا تحتل التأخير، أمدادنا بأسلحة وطائرات

مع تحياتي الأخوية / جيرال

وكان رئيس وزراء الجبهة الشعبية الفرنسي، يرغب بتقديم المساعدة الفورية، ولكن أوساط الجبهة الشعبية (الائتلاف الحاكم) عارضت مثل هذا الاتجاه قائلة " لماذا ينبغي علينا أن نغامر بنشوب حرب من أجل أسبانيا وهو ما لم نفعله من أجل الراين " .

أما وزير الخارجية البريطانية أيدين Eden ، فقد كان رأيه حيال مسألة توريد الأسلحة إلى الجمهورية الأسبانية فقد عبر عنه لرئيس الوزراء الفرنسي بلوم بقوله الذي لا يخلو من الصراحة : " إنها مغامرتم وحدكم " .

وأخيراً فقد أرسلت حكومة الجمهورية الأسبانية ذهباً بقيمة 140,000 باون إنكليزي إلى تجار الأسلحة في باريس، وحصلوا بهذه الطريقة على 70 طائرة قتال فرنسية وأرسلوها إلى أسبانيا، كما استطاعوا التعاقد مع طيارين برواتب 50,000 بيزيتا شهرياً. وأحد هؤلاء الطيارين كان أندريه مالرو Andre Malraux الذي نظم للجمهورية سرباً يتألف من 20 طائرة كان جميع طيارها من الأجانب، بما في ذلك مالرو نفسه الذي لم يحصل قط على شهادة الطيران .(22)

أما المساعدة الفورية، فقد تلقتها حكومة الجمهورية من بلاد بعيدة، من المكسيك. إذ لم يشأ الرئيس المكسيكي لازارو كارديناس أن يكون من المتفرجين، والفاشية تلتهم بلداً بعد آخر، فقد أرسل إلى حكومة الجمهورية الأسبانية سفينة على متنها 20,000 بندقية ماوزر و20 مليون إطلاقه.

كان ستالين يتصرف بحذر وبتكتيك، وكانت الجمهورية تأمل مساعدته، إلا أن ستالين كان يعتقد أن هذه النزاع قد يؤدي إلى الحرب. وفي بداية آب أرسل إلى مدريد نصف مليون جنيه أسترليني، ثم أرسل بعد ذلك مندوبين من الكومنترن إلى أسبانيا هما: بالميرو تولياتي (الزعيم الشيوعي الإيطالي) وكان يحمل اسماً حركياً " الفيرو " والقائد الهنغاري أرنو جيرو الذي كان مهتماً بمقاطعة كاتالانبا، ثم تم تعيين البلشفي القديم أنتونوف أوفسينكو الذي كان في طليعة الثوار الذين هاجموا قصر الشتاء في بترسبيرغ (لينينغراد) عشية ثورة أكتوبر، قنصلاً عاماً للاتحاد السوفياتي في برشلونه، كذلك عين سكرتير عصابة الأمم مارسيل روزنبرغ سفيراً للاتحاد السوفياتي لدى الجمهورية الأسبانية في مدريد .(22)

وفي 31/ آب قرر المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفياتي تقديم مساعدة فعالة للجمهورية الأسبانية في وقت كان فيه تروتسكي يندد بالموقف السوفياتي ويتهمها بطعن أسبانيا. وقد تم إرسال الجنرال بيرتسين كمستشار عسكري وأعداد من الطيارين، وفي أواسط أكتوبر/ تشرين الأول، وصلت سفن الشحن قادمة من ميناء أوديسا السوفياتي، ومعهم 5000 ضابط وجندي سوفياتي، بضمنهم من أصبح جنرالات، وأبطال الأتحاد السوفياتي في الحرب العالمية الثانية، ومارشالات مثل : مالمينوفسكي، وركوسوفسكي، وكونيف، وكوليك، وبطل ستالينغراد، رودينسيف. وكان الشعب يبكي من الفرح في الشوارع وفي ميناء المدينة ويهتفون " يعيش الأتحاد السوفياتي " .

وهكذا ومنذ الأشهر الأولى للحرب الأهلية الأسبانية، بدأ أجانب يطلقون النار على بعضهم على الرغم من أن الحكومات الأوروبية بتأثير من الحكومة البريطانية عقدت اتفاقية رسمية بعدم التدخل والتي استحسنتها عصابة الأمم المتحدة في جنيف. وقد أدى التدخل الأجنبي (وقد بدأتها قوى الانقلابيين الفاشست) إلى تعثر الجهود من أجل إنهاء الحرب الأهلية ومبادرات الحكومة الأسبانية بهذا الصدد، وبالتالي إلى وضع نهاية سريعة للحرب.

وفي نهاية تشرين الأول كانت قوات فرانكو قد وصلت إلى ضواحي العاصمة مدريد الغربية. وقد غادرت الحكومة الأسبانية العاصمة، فذهب رئيس الجمهورية إلى برشلونة، ومجلس الوزراء خلع رئيسه جيرال الذي هرب إلى فالانسيا، ونصب بدلاً عنه الاشتراكي لارجو دي كاباليرو.

سادت الفوضى العاصمة، وأجاب الجنرال مولا على أسئلة الصحفيين: أي من الطوابير الأربعة ستصل مدريد قبل غيرها. فأجاب هم: الطابور الخامس، وهو يعني أن أنصار فرانكو والفاشست من الكتائب في العاصمة كانوا قد بدأوا تحركاتهم في الشوارع فعلاً. ثم شاعت هذه المقولة وأصبحت تاريخية، وكانت تنبئ في حينها أن القتال قد أصبح في العاصمة.

وحدثت المجزرة، عندما كانت تجري عملية نقل أكثر من ألف من المعتقلين الفاشست إلى خارج العاصمة والمسؤول عن المذبحة كان سكرتير الشبيبة الاشتراكية سانتيأغو كاريلو Santiago Carrillo الذي كان في 21 من عمره، والمسؤول عن أمن مدريد. (23) إذ على بعد حوالي 20 كيلو متراً شرقي العاصمة وبالقرب من قرية باركويلوس، أرغم الحراس سجنائهم على حفر قبورهم ثم أطلقوا النار عليهم جميعاً. واليوم يقوم حيث حدثت المجزرة نصب تذكاري ومقبرة لضحايا المجزرة، وما زالت ذكريات تلك المجزرة تلقي بظلالها السوداء على التاريخ السياسي للسكرتير العام للحزب الشيوعي الأسباني وعلى تاريخه السياسي.

أوكلت مهمة الدفاع عن العاصمة مدريد إلى لجنة عسكرية كان اليساريون الثوريون والشيوعيون والفوضيون، يمثلون العناصر الأساسية فيها. وفي مدريد أيضاً كان هناك الجنرال في سلاح المشاة مياجا، الذي كان يبلغ الستين من العمر، ولكنه ما يزال محتفظاً بنشاطه، والذي أصبح قائداً في جيش الجمهوريين بالصدفة. فقد كان يقود احد ألوية المشاة في مدريد وقت حدوث التمرد، وكان أي قرار يتخذه إلى جانب الانقلابيين سيعني موته الأكيد والفوري.

والآن تلقى الجنرال مياجا أمراً من وزارة الدفاع المنسحبة من العاصمة بالدفاع عنها بأي ثمن. وفيما عدا عناصر الميليشيا التي لم تكن منضبطة تماماً، كانت الوحدات العسكرية المخصصة لهذا الغرض قليلة. وكانت الوحدة التي انفردت بالانضباط العسكري وبتسليحها الممتاز تشكل قوة ضاربة، كانت الكتيبة الخامسة المؤلفة من الشيوعيين، وقد أسماها الحزب الشيوعي الأسباني بالكتيبة الخامسة، ذلك أن حامية مدريد كانت تضم 4 كتائب مشاة من الجيش النظامي. وكانت الكتيبة الشيوعية بقوتها المؤلفة أكثر من 5000 مقاتل، كانوا قد تدربوا في مدرسة الميليشيا ولديهم مدفعيتهم وتموينهم الخاص. وكانت الكتيبة تتبع في أسلوب تشكيلها نظام الجيش السوفياتي من وجود القوميسار السياسي (المسؤول السياسي) والتنقيف الأيديولوجي.

وكان يقود الكتيبة الخامسة احد عمال الأخشاب من مدينة غاليسين واسمه الجنرال ليستر الذي غدا بمرور الوقت، احد أبطال الحرب الأهلية. وبصفة عامة فقد قاتلت قوات الميليشيا ومقاتلي الكتيبة الخامسة بكل بسالة ضد المراكشيين والجيوش الأجنبية (الألمانية والإيطالية).

وكانت النائبة الشيوعية دولوريس إيباروري Dolores Ibarruri (24) التي كانت تعمل في بداية الانقلاب (أو التمرد) على تثقيف الجنود وجذبهم إلى جانب الجمهورية، وكانت تمارس ذلك مع إحدى الكتائب العسكرية في مدريد حتى غدوا من أشد المخلصين للجمهورية، وهي الآن تطلق النيران يومياً من الإذاعة وتحض الجنود الشبان والنساء، وكان لها جملتها الشهيرة بين الثوريين: -

" نموت واقفين منتصبين القامة خير من أن نموت راكعين " .

هذه الجملة التي أطلقها إيباروري الشهيرة بلقب باسيوناريا، أخذها المحاربين في صفوف الجمهورية، موقفاً ولاسيما من قبل الفوضويين الذين اعتبروا أن أي تراجع أو حرص على الحياة هو أمر معيب ومرفوض كمبدأ. لذلك فقد كانوا يقاتلون ويقتلون على أبواب العاصمة، مدريد. (25)

وفي ظروف الدفاع عن العاصمة، كان الترامواي وسيلة النقل الأساسية إلى الجبهة، بخمسة سانتيموس (خمسة فلوس أو قروش) كانوا يدفعونها لقاء النقل. وقد نقل الترامواي في إحدى المرات ملئاً حافلاته بالحلاقين الذين هرعوا إلى الجبهة دون أن يتسنى لهم الوقت حتى بخلع الصدرية البيضاء التي يعملون بها وبدون سلاح يقاتلون به إذ كان عليهم أن يتدبروه من القتلى في الجبهة، وسواق التاكسي وجدوا أنفسهم أمام مقود الدبابات في الجبهة.

كان الهاربون من معارك الجبهة يتلقون الكلمات المشينة من النساء: "جناء ... إلى أين تهربون ..؟ أعطونا بنادقكم " . كما كان النساء والأطفال يأخذون الطعام والماء والعتاد إلى المقاتلين في الجبهة، والعرائس كن يزرن أزواجهن، وغالباً ما كن يقتلن إلى جانبهم.

وقد تحقق أحد المرسلين الأجانب، من أن لدى الميليشيا تكتيك جديد في القضاء على دبابات الفاشست، فذهب إلى الجبهة وسأل أحد المقاتلين الفتية والذي كان قد دمر عدة دبابات بواسطة علب فارغة يملأها بالديناميت، وسأله عن كيفية وإمكانية حدوث هذا الأمر فأجابته الفتى: " Echando cojones al ausnto " " بدون خوف في البيضات " . وهو ما يعني أن المهم أن لا يخاف المرء. وهكذا أبرق ذلك الصحفي الذي يجهل الطباع الأسبانية إلى الصحيفة التي يرأسها في بلاده أن الميليشيات الجمهورية لديها سلاح جديد في مقاتلة الدبابات.. وهو البيض!!!

وبرغم البطولات والتضحيات، فقد تقدمت قوات فرانكو نحو العاصمة أكثر فأكثر، وقد تحدث أحد أصدقاء فرانكو إلى المرسلين الأجانب وهو الجنرال فاريللا Varela في 4 / نوفمبر - تشرين الثاني قائلاً: " بعد أسبوع واحد سنكون معاً في مدريد " . وفرانكو شخصياً كان يرغب أن يدخل مدريد قريباً، ففي 8 /نوفمبر سيحل يوم ديني مقدس، وهكذا أذاع راديو بورغوس الفاشي، " أن الساعات الأخيرة لمدريد قد حلت " .

أغلق المدرديون، أنفاق المترو، إذ كانوا يخشون تسلل الجنود المراكشيون منها إلى قلب المدينة، وبناء على نداءات باسيونارا(إيباروري)، قمن النسوة من ربوات البيوت بتحضير زيت الزيتون المغلي ليصبوها على رؤوس الفاشست.

فأذن، مدريد كانت على وشك السقوط. وفجأة ظهرت صورة فريدة من نوعها طوابير طويلة من الرجال في ملابس نسيجية نظيفة، يمشون بدقة وبخطوات منتظمة، مرتدين

الأنطقة الجلدية والخوذ الفولاذية، يحملون بنادق جديدة لما تستعمل بعد، كانوا يغنون بلغات مختلفة، وكان اللحن معروفاً: إنه نشيد الأممية. ... المدرديون اعتقدوا أن ستالين أرسل لهم الجيش الأحمر في الدقيقة الأخيرة، تعالت الهتافات بحياة الإتحاد السوفيتي.

وفي الحقيقة لم يكن هذا العرض سوى الألوية الأممية Internationale Brigade المؤلفة من ألوية ألمان، وبريطانيون، فرنسيون، إيطاليون، بلجيكيون، ومن بلدان أوروبا الشرقية، وأيضاً رجال تجاوزوا الأربعين من العمر، متطوعين تسجلوا في الألوية الأممية المعادية للفاشية والتي كانت موسكو قد دعت لها. وأسرع الحزب الشيوعي الفرنسي بإشارة من رئيسه موريس توريز، إلى تنظيم هذه الدعوة من الشيوعيين واليساريين من أجل الوقوف إلى جانب الجمهورية الأسبانية المهتدة بالخطر.

كانت الأفواج الثلاثة الأولى من اللواء الأممي الحادي عشر بقيادة أحد الضباط السابقين وأسمه الحركي كليبر Kleber زجت في معارك تشرين الثاني الحاسمة على جبهة الباكيت بعد تدريب سريع لمدة ثلاثة أسابيع، ومنها الكتيبة الألمانية المسماة أدغار أندريه والكتيبة الفرنسية المسماة كومونة باريس، والكتيبة البولونية المسماة دابروفسكي.

والأجانب المتطوعين الذين قدموا ليدافعوا عن المثل والطموحات الأسبانية بدمائهم وخاضوا غمار المعارك التي تزدري الموت، ذلك الأقدام الذي كان الجنود المراكشيون يشتهرون به، بيد أن الميليشيات اليسارية تشجعت بدورها وتمرست في القتال، وكذلك الألوية الأممية الذين سرعان ما خاضوا غمار المعارك القاسية، وقد خسروا ثلث قوتهم في أولى المعارك، وبعض الفصائل قاتلت حتى الرجل الأخير فيها.

في نفس الوقت، كانت أولى الدبابات الروسية من طراز ت 26 التي جاءت مباشرة من ميناء قرطاجنة ومن محطة مدريد الشرقية، إلى الجبهة مباشرة بقيادة الجنرال باقلوف Pawlow التي أوقعت خسائر فادحة بالخيالة المراكشيين.

وبعد قتال وحشي بالحرايب بين الألوية الأممية والمراكشيين في كل غرفة دفاعاً عن بنايات الجامعة (وكانت تقع في ضواحي مدريد) ومعهم عناصر من الميليشيات الأسبان الأستوريين الذين كانوا يضعون الديناميت في المصاعد ويفجرونها في الطوابق التي يحتلها المراكشيون. في قتال شرس دامى.

في 23 / نوفمبر - تشرين الثاني توقف هجوم فرانكو على مدريد وانهزمت قواته بعد كانت قد وصلت إلى ضواحي العاصمة، وهكذا فأن الجنرال مولا (الذي عزل بعد ستة أشهر) لم يستطع قط أن يتناول فهورته في مقهى " غران فيا " كما كان قد وعد نفسه والآخرين بذلك، كما كان على الجنرال فرانكو أن يؤجل إقامة قداسه لمدة سنتين ونصف. العاصمة أنقذت، ويستحق الشكر الرجال الذين قدموا عبر جبال البيرنيه، وبعضهم جاء مشياً على الأقدام، الذين أقسموا بلغات مختلفة عديدة، والنضال بكل قواهم من أجل الحرية.

ولكن مدريد لم تصبح مقبرة للفاشست كما تحدث الإعلاميون والدعائيين. وفرانكو الذي بلغ به الغضب بأن أمر بقصف مدريد بلا رحمة، وقال: " من الأفضل أن تدمر مدريد على أن أسلمها للحمر ". (26) الحرب ستستمر سنوات أخرى وسيسقط مئات الألوف بعد، سيتبعون العشرة الآف قتيل الذين سقطوا في معركة الدفاع عن مدريد.

هوامش الفصل الثاني

- (12) كانت فرنسا قد وضعت يدها على منطقة الراين (الروهر - السار) بموجب الاتفاقيات التي أبرمها بعد الحرب العالمية الأولى واستغلال مناجمها الغنية بالثروات المعدنية، إلا أن هتلر استعادها بجهد سياسي مترافق مع تهديد عسكري عام 1935. المغرب
- (13) كانت أسبانيا وعبر تاريخها الاستعماري الطويل منذ القرن السابع عشر، تطمح باحتلال الأراضي المغربية كراس جسر لها في القارة الأفريقية. وقد تنافست في هذا المجال مع دول استعمارية عديدة وفي مقدمتها فرنسا. وفي عام 1907 بدأت القوات الفرنسية والأسبانية باحتلال وتقاسم الأراضي المغربية، وسيطرت أسبانيا على الشريط الساحلي الذي يضم مدن سبتة ومليلة وتطوان رغم المقاومة المسلحة الباسلة، فقد تمكن الأسبان من تثبيت أقدامهم في تلك المناطق وكان الفاشست الأسبان قد وعدوا مراكز الأسبانية بالحكم الذاتي وبالحرية المدنية ولكنهم نكثوا وعودهم بعد انتصارهم على الجمهوريين، وما زالت أسبانيا تحتل تلك الأجزاء من المغرب حتى الآن. المغرب
- (14) فيلي براندت : شخصية سياسية ألمانية معروفة، شغل منصب عمدة برلين الغربية، ومنصب وزير الخارجية في ألمانيا الاتحادية ثم منصب المستشار الاتحادي، شغل لسنوات طويلة رئيس الحزب الاشتراكي الألماني SPD ورئيس الاشتراكية الدولية. المغرب
- (15) جورج أروول (1903 - 1950) كاتب بريطاني أشهر بكتابه 1984 وكتابه "حديقة الحيوانات". عمل في أواخر سنواته لصالح مصلحة الاستخبارات البريطانية، وكتابه الانفي الذكر، يعدان من الأدب المعادي للاشتراكية، وكان تقديماً معادياً للاستعمار ومؤيداً لقضايا التحرر قبل ارتداده وفي مطلع حياته القصيرة (47) سنة. المغرب
- (16) ومفردتها مذراة، وهي أداة خشبية لفصل الحنطة والشعير عن التبن. المغرب
- (17) ميغويل دي أونو مونو : 1864 - 1936 : ولد في بلباو ودرس الفلسفة والآداب في جامعة مدريد، وحصل على كرسي اللغة اليونانية من جامعة سلامانكا، ثم أصبح عميداً لهذه الجامعة. كان مفكراً وجودياً له مؤلفات في الفلسفة كما كتب عدة روايات مشهورة، وكتائباً مسرحياً وشاعراً. توفي في سلامانكا. المغرب
- (18) يورد الكاتب الفرنسي أندريه مالرو في روايته عن الحرب الأهلية الأسبانية جانباً من خطاب أونومونو وأصداءه إذ قال : " إن أسبانيا بغير بسكاي وبغير كاتالونيا تصبح بلداً شبيهاً بك يا سيدي الجنرال: عوراء، كعتاء، الانتصار ليس معناه الإقناع. المغرب
- (19) في الواقع حصلت حكومة فرانكو على الدعم من الولايات المتحدة الأمريكية، من شركات وبنوك على شكل قروض مالية نقدية أو على شكل معدات. المغرب
- (20) هذه واحدة من أروع قصائد الشاعر والمسرحي الألماني برتولد بريشت، وقد حاولت جهدي في ترجمتها مع الحفاظ على جمال لغتها الألمانية، ومغزاها السياسي العميق، فكلمة محيط Raum ترتبط في ذهن الألمان بمصطلح المجال الحيوي Lebens Raum ، استخدمها برشت شعرياً. شقيقة والتوسع قبراً في أسبانيا. المغرب
- (21) سنتيتين: المدينة والميناء تقع شمال ألمانيا، ضمت إلى بولونيا بعد الحرب العالمية الثانية واسمها اليوم سنتيتين. المغرب
- (22) أندريه مالرو : كاتب فرنسي مشهور، قاتل كطيار في الحرب الأهلية الأسبانية، ثم عمل ضابط مدرعات في الجيش الفرنسي في الحرب العالمية الثانية، أشترك بصورة فعالة إلى جانب ديغول في مقاومة النازي خلال احتلال فرنسا في الحرب العالمية الثانية، ذهب إلى الصين خلال حربها التحررية وعقد صلات مع وماوتسي تونغ وشوان لاي. عمل

- وزيراً للثقافة في فرنسا. ومن أشهر مؤلفاته: الوضع البشري، الأمل، الغزاة، اللامذكرات، أنا وديغول.المعرب
- (22) الكومنترن : القيادة العالمية للأحزاب الشيوعية والعمالية ، كان مقرها موسكو ألغيت عام 1943 وحل محلها الكومنفورم والذي ألغي أيضاً عام 1956. المعرب
- (23) ينفي سانتياغو كاريللو، السكرتير العام للحزب الشيوعي الأسباني لاحقاً مسؤوليته عن هذه الحادثة في كتابه "أسبانيا غداً" ويعتبرها من الأفتراءات التي تلصقها الفاشية به وعلى الفصائل اليسارية. المعرب
- (24) دولوريس إيباروري: فيما بعد السكرتير العام للحزب الشيوعي الأسباني، ورئيسة الحزب عند تأليف الكتاب، وشخصية أسطورية في تاريخ أسبانيا. المعرب
- (25) أعتقد أن المؤلف قد أخطأ بتشبيهه من يفضل الموت على الحياة من اجل قضيته بالذباب. المعرب
- (26) يورد الكاتب الفرنسي أندريه مالرو في روايته (الأمل) عن أحداث الحرب الأهلية الأسبانية، عن قصف العاصمة مدريد قوله : أن مدافع الفاشست كانت تقصف أحياء الفقراء ولا توجه قذائفها إلى أحياء الأرستقراطية والأثرياء. المعرب

الفصل الثالث

الجمهورية تستعيد التوازن العسكري - الألوية الأممية كعنصر فعال في القتال
الاتحاد السوفيتي يساعد الجمهورية

أسبانيا تريد أن تبحث
أن تنبثق
أسبانيا كلها تشرع في الحياة
علينا أن نهب لإنقاذ هذا البحث الجديد
لقد أزفت الساعة
فهيا بنا ... بالفأس والنار
لاستقبال اليوم الجديد

أنطونيو ماتشادو

وهكذا، فإن متطوعي الألوية الألمانية الذين جاءوا من 60 بلداً ليقدموا حياتهم إلى بلد غريب، سجلوا أمراً لم يحدث في تاريخ الحروب.(27)

كانت أولى قوات الأممية قد تشكلت بصورة عفوية، من الرياضيين القادمين إلى أولمبياد العمال في برشلونة عام 1936 من العدائين والسباحين، وقد أنظم إليهم المرسلين الصحفيين والمصورين من كافة بلدان أوروبا وجميع هؤلاء قدموا أنفسهم وانظموا إلى الدفاع عن الجمهورية. ومن هؤلاء ومنذ بداية الحرب الأهلية كانت كتيبة أرست تيلمان الألمانية، وكتيبة توماس مان البريطانية وكذلك الكتيبة الإيطالية.

وفي 19 / تموز سقط أثنان من المتطوعين الأجانب في برشلونة وكانا، نمساوي وإيطالي. وكان قائد الكتيبة الألمانية هانز بايملر وهو شيوعي من مقاطعة بافاريا(وعاصمة المقاطعة ميونيخ)، قد سقط في تشرين الثاني خلال الدفاع عن مدريد. وبعد سقوط هذان المتطوعان، تم تشكيل وحدات منظمة، تنفيذاً لقرار المؤتمر الشيوعي الذي انعقد في براغ بتاريخ 26/ تموز هي وحدات الدفاع عن الجمهورية الأسبانية.

ولكن حكومة الجمهورية لم تسر كثيراً بقدم المتطوعين الأجانب ولاسيما الزعيم الاشتراكي لارجو كاباليرو، الذي كان ينظر بعين الريبة إلى وحدات المساعدة الأجنبية، إذ كان يخشى تدخلاتهم ولا سيما من الكتائب الألمانية والإيطالية والبرتغالية التي كانت فاعلة ونشيطة في مقاومة الاتجاهات اليمينية التي كانت تسعى إلى السيطرة على مقاليد الأمور ثم توالى الكتائب الأممية في الوصول إلى أسبانيا.

أخلت الحكومة إحدى المعسكرات السابقة للجندرمة في منطقة الباكيتا الكائنة وسط الطريق المؤدية من مدريد إلى قرطاجنة الذين بدءوا يتوافدون من كل مكان إلى أسبانيا.

ويكتب الصحفي السويسري ماكس فولشليكر : " كانوا يأتون في الليل، وفي الضباب، كانوا يأتون في الريح والبرد ويبقون أياماً طويلة جياح ومتجمدي الأطراف، هكذا كانت بدايات قدوم المتطوعين لمساندة الجمهورية. الألمان والنمساويون والإيطاليون الذين هجروا بلدانهم (بسبب استلام الأنظمة الفاشية الحكم فيها)، وجدوا أن الوقت قد حان، وأن ساعة أداء الواجب قد حلت لأن يضعوا حياتهم وقضية الدفاع عن الحرية والإنسانية في الميزان".

وعلى سبيل المثال، فإن أكثر من 1700 من النمسا: اشتراكيين وديمقراطيين الذين وجدوا أنفسهم أمام حرب أهلية في بلادهم والذين ناضلوا ضد الحكومة الفاشية والذين اضطروا إلى الهجرة وخوض حرب جديدة. والمناضل النمساوي يوليوس دويتش الذي كان يقود العمال النمساويين من على المتاريس، غدا جنرالاً ومسئولاً عن حماية السواحل في الحرب الأهلية الأسبانية.

أستلم مسؤولية مكتب تجنيد المتطوعين الأمميين في باريس شيوعي يوغسلافي يدعى جوزيف بروز(فيما بعد تيتو)، وهناك تقدم الكثيرون من الفرنسيين من العمال العاطلين عن العمل، وأيضاً الكثير من الشبان في بلجيكا، كما جاء شبان متعطشون للنضال، من أيرلندا وبريطانيا وأمريكيون سود. وجاء رجالان من رومانيا متعلقان بقطار بضائع لمدة 30 ساعة حتى وصلوا إلى باريس. ومناضل الباني جاء مشياً على الأقدام من أجل أن يصل إلى أسبانيا وليقاتل الفاشية، يونانيون، وفنلنديون، بل وحتى جاءوا من الهند. كانوا يسلكون كل

الطرق حتى يصلوا إلى أسبانيا، حتى بطريقة (الأوتو ستوب) وأعيد الكثيرون من الحدود الفرنسية - الأسبانية أو اعتقلوا.

كثيرون جاءوا من بلدان أوروبا الشرقية : بولونيا، هنغاريا، جيكوسلوفاكيا، يوغسلافيا، وأكثر من نصف المتطوعين كانوا من العمال وكثيرون أيضاً كانوا من البحارة، ولكن هناك أيضاً معلمون ومدرسون، وموظفون وطلاب، وفنانون وأطباء، علماء وصحفيون، فقد وصف أحدهم الألوية الأممية "ألوية المتقنين العسكرية".

كانوا يلتقون في محطة النقل البعيد في باريس المشهورة أوسترلنيز، الذي سمي بعد ذلك " اكسبريس المتطوعين" والعديد منهم كانوا يعبرون إلى أسبانيا عبر جبال البيرنيه Pyrean ويتذكر المناضل النمساوي أوتو دورفر : " كان الرفاق الفرنسيون ينقلوننا إلى أسبانيا عبر جبال البيرنيه في الليالي المظلمة. وفي فجر كان رجال نقطة الكمارك الأسبانية يلتقون السكائر من العمال المتطوعين، وهي التي سيفنقرون إليها أشد الافتقار فيما بعد ". وفي معسكر تدريب الباكيي كان المتطوعون الجدد يسلمون جوازات سفرهم ويقابلون بانضباط شديد. " (28)

والشيوعيون الإيطاليون، وفي مقدمتهم لويجي لونجو Luigi Longo وأسمه الحركي El Gallo ، كان لهم حضورهم المتميز بين غيرهم من المتطوعين في الألوية الأممية. وكان أحد الكوادر النشيطة يدعى فالتر أولبريشت وكان يتزعم اللذين يتحدثون الألمانية (الألمان والسويسريون والنمساويون وغيرهم من الأقليات) وعمل مناضل جيكوسلوفاكي وهو كليمينت كوتفالد، كموجه سياسي، وهو الذي أصبح فيما بعد رئيساً لجمهورية تشيكوسلوفاكيا. (29)

كان القائد الشيوعي المتجهم الوجه أندريه مارتي، الذي كان والده مقاتلاً في كومونة باريس، يشغل منصب المسؤول الأعلى للألوية الأممية. وكان مارتي نفسه كان جندياً ميكانيكياً في البحرية الفرنسية العاملة في البحر السود، ورفض مساعدة الروس البيض الذين تمردوا وقاوموا الثورة والسلطة البلشفية ويتلقون المساعدات مت الدول الرأسمالية ومنها فرنسا. ثم نشط فيما بعد كأحد الكوادر في الحزب الشيوعي الفرنسي. وكان مارتي في قيادته للألوية الأممية قليل الثقة، لم يكن يصغي لأحد، فكان يوجه الألوية بطريقته الخاصة.

ومن أولى تشكيلات الألوية الأممية التي استخدمت في مدريد كانت بقيادة الجنرال اميليو كليبر، وأسمه الحقيقي لازار شتيرن القادم من بوكوفينا. وكان قد ساهم في الحرب العالمية الأولى كضابط برتبة نقيب في جيش الإمبراطورية النمساوية - الهنغارية، وهرب وأنظم إلى صفوف الثورة الروسية وساهم في ثور أكتوبر، وكان حاضراً عملية إعدام القيصر الروسي وعائلته. ثم تابع دراسته العسكرية في أكاديمية فرونز العسكرية، وأرسله ستالين في مهمة سرية إلى الصين.

وقد زج الجنرال أولى أفواجه من المتطوعين بعد ثلاثة أسابيع من التدريب مقابل قطعات نخبه من جيش فرانكو، في القتال الدائر حول مدينة مدريد العاصمة، وما كان ينقص الجنرال من المعلومات العسكرية، كان المتطوعون يملئونه بالحماس وبأيمانهم بعدالة قضيتهم وباستخفافهم بالموت، هؤلاء الذين كانوا ينشدون نشيد الأممية الذي ألفه المناضل الألماني إيرش فاينرت Erich Weinert ، الذي أطلق عليه أسم : نشيد الألوية الأممية:

وطننا اليوم هو جبهة مدريد
أخوتنا الأسبان يقفون على المتاريس
أخوتنا الفلاحين والعمال
إلى الأمام ... أيتها الألوية الأممية
أن حرية أسبانيا تعني شرفنا
بقلوب أممية...
أقذفوا إلى الشيطان بكتائب الأعداء
أقذفوا إلى البحر جنرالات العصابات .

وهكذا قذف هؤلاء الرجال بأنفسهم أمام أعدائهم الذين لم يسبق لهم مواجهة هذا الصنف من الرجال.

وقد وصف الكاتب الألماني بودو أوزا وهو ابن ضابط بروسي ونازي سابق، أنظم إلى الحزب الشيوعي الألماني، وصف القتال المستميت للألوية الأممية أمام مدريد :

" أين هي الفصيلة الثالثة، كان عليها أن تهرع بسرعة لمساعدة الرفاق الهنغاريين، لقد أستسلم العديد منهم وليس هناك سوى 70 مقاتل في القطاع الغربي، 70 فقط من غير المجريين، والمسلحين تسليحاً سيئاً، وخلفهم مدريد. ولكن هؤلاء الجنود المراكشيون(من جيش فرانكو) سدوا الطريق إلى المدينة بنيرانهم رغم قسوة ووحشية الأعداء".

وفي المدينة الجامعية قاتل مناضلوا الألوية الأممية ومعهم الفوضويون بقيادة قائدهم الأسطوري دورتي، الذي سقط في المعركة، قاتلوا ضد المغاربة في كل بناية، في كل طابق، وفي كل غرفة.

وعن ذلك يكتب أوزا : -

" أن كتيبة كومونة باريس الفرنسية احتلت قسم الفلسفة والثقافة، وهناك بدأوا يقيمون متاريسهم مستخدمين كل شيء كانوا يجدونه: الطاولات، مصاطب الطلبة، والكتب من أعمال كانت وغوته وفولتير وأفلاطون من أجل وضع الحواجز أمام تقدم الفاشست".

وكتب أحد البريطانيين عن التضحيات غير المجدية لمناضلي الأممية : " الرجال الغير قابلين للتحطيم، يقاتلون كتفاً لكتف على خطوط الدفاع عن مدريد". من أمثال: الجنرال لوكاس، وهو الكاتب الهنغاري وأسمه الحقيقي ماتا تسالكا، والشيوعي الألماني غوستاف ريكلر، وفيلهام تسايزر ولودفغ ران، وهو مؤلف كتاب الحرب، أيزموند روميلي، حفيد تشرشل، والاشتراكي الإيطالي بيترونييني.(30)

وصمدت الفصيلة البولونية من الكتيبة البولونية دابروفسكي، في المعهد الفرنسي(ضمن بنايات الجامعة) حتى سقط آخر رجل منهم. وفي نهاية نوفمبر- تشرين الثاني أضطر فرانكو إلى إيقاف الهجوم على العاصمة مدريد، ذلك أن قطعاته كانت قد أرهقت تماماً وقد خسر أكثر من نصف جيشه الذي أتى به من أفريقيا.

وصرح العقيد ياغودي الذي كان يقود الهجمات حتى مدريد، صرح للصحفي الأمريكي توي تاكر: " لقد انتهينا، فنحن لا نستطيع الحفاظ على أي موقع عندما يهاجمنا الحمر".

وفي الجانب الآخر، أطلق المدافعون عن مدريد شعار No Pasaran : لن يمرؤا. في حين كانت قوات فرانكو ترفع شعار : Pasaremo : سنمر . وكان هذا يشير إلى أن الفاشست الفرانكويين لا يتنازلون حتى في أوقات الضيق.

الآن: بدأت الطائرات الألمانية والإيطالية تقصف مدريد بلا رحمة أو شفقة، وتكتب الاشتراكية النمساوية ألزا باريا:

" الثماني وأربعون ساعة الأخيرة كانت فضيحة، لما قاسته هذه المدينة الغير محظوظة. مدريد تحترق، الشوارع تسبح في الضياء، مع أنها ليست نهاراً. الشوارع دافئة، مع أنها ليست صيفاً. إنها أحدى أمسيات نوفمبر، مدريد تحترق، الطيارين الألمان أشعلوا فيها النار".

نهار اليوم، قصفت 20 العاصمة طائرة ألمانية قاصفة من طراز يونكرز بمشاركة 30 طائرة مقاتلة، وتستعيد قصفها كل ثلاثة أو أربعة ساعات، وبعد كل قصف، هناك دائماً المزيد من الدمار والأنقاض، والناس يبكون في الشوارع، يهزون وينتحبون وقد تحولوا إلى أنصاف مجانيين.

في نهاية عام 1937 تهدم العسكرية الفاشية عاصمة أوربية كبيرة أمام أعين العالم.

قال المسيح وهو يخاطب ربه : " ألهي سامحهم ، أنهم لا يعرفون ماذا يفعلون. فكتب محرر صحيفة باريس سوار بعد أن شاهد التدمير والقتل الجماعي للسكان الغير مذنبين في مدريد :-

أعتقد أننا يجب أن نقول : يا الهي لا تسامحهم، أنهم يعلمون ماذا يفعلون " .

أما فرانكو وطابوره الخامس في المدينة من الفاشست وأنصارهم، فأنهم كانوا يعملون على توسيع حجم المأساة من خلال القيام بهجمات من داخل العاصمة بإلقاء القنابل في أنحاء مختلفة. ويكتب المؤرخان الفرنسيان بروي وتوميني:

" في غضون عملية تدمير مدريد، كان الطابور الخامس من أنصار فرانكو وأعداء الجمهورية ينشطون في الأعمال التخريبية، وفي نفس الأبنية ولا سيما السفارات المهجورة التي ألتجأ إليها الناس الذين فقدوا منازلهم نتيجة للتدمير والذين يقدر عددهم ب300,000 شخص، ومن هذه السفارات بناية ممثلية فنلندة وممثلية دولة سيام".

وفعلاً، فأن ما حصل في مدريد تحقق فيما بعد في مدن أوربية عديدة خلال الحرب العالمية الثانية عندما دمر الألمان مدينة روتردام الهولندية ومدينة كوفنتري البريطانية، وأن هذا النوع من الهجمات التي تحمل طابع الإرهاب للمدنيين ستؤدي إلى الحقد والكراهية أكثر مما تخيف. وأخيراً التدمير في المدن الألمانية نفسها، أظهرت نتيجة واحدة: الهجمات الإرهابية تؤدي إلى الحقد أكثر من الخوف والدليل على ذلك الصمود المتصاعد لسكان المدينة والمدافعين عنها وكان في عدادهم 600 من النساء المجندات في أفواج النساء اللواتي ضحين بأنفسهن، وقد تعودن الحياة مع فرقة القنابل.

كانت الألام قد غدت قدر أسبانيا وليس مدريد لوحدها.

في كاديذ Cadiz الميناء الذي يقع في جنوب البلاد، وكذلك في الجيراسيراس Algerciras كان يجري أنزال طوابير عديدة من جنود دول أجنبية (ألمانيا وإيطاليا) مجهزة بأحدث الأسلحة تتدفق على أسبانيا، وكانت كل من روما وبرلين قد أعلنتا اعترافهما بحكومة الطغمة العسكرية للجنرال فرانسيكو فرانكو.

وقد سارع هتلر إلى إرسال الجنرال فيلهام فاوبل Wilhelm Faupel الذي كان قد عاش سنوات طويلة في أميركا اللاتينية ويتكلم الأسبانية بطلاقة، كمبعوث خاص وكمستشار عسكري لفرانكو الذي يحمل رتبة جنراليسيمو. وتم تجهيز القوات الألمانية التي كانت تحمل أسم كوندور بطائرات ضاربة من السلاح الجوي الألماني التي لم تكن حتى ذلك الوقت مستخدمة في الحروب.

أما موسوليني دكتاتور إيطاليا، فقد أرسل بادئ الأمر 17,000 رجل، تبعهم طوابير أخرى حتى بلغ العدد الأجمالي لجنود الجيش الإيطالي 60,000 رجل على الأرض الأسبانية. وكان كلا من النظامين الفاشيين في ألمانيا وإيطاليا يودان رؤية فرانكو منتصراً، ومن أجل هذا الهدف، فأنهم لم يكتفوا بإرسال القوات العسكرية وبضخ الأسلحة المتقدمة في وقتها بل وبالدم المالي. وبدا أن هيبة النظامين مرهونة بنتائج الصراع المسلح الدائر في أسبانيا.

أما ستالين، فبسبب البعد الشاسع للاتحاد السوفيتي عن أسبانيا لم يستطع أن يتدخل على الفور في مجريات الأمور.

ولكن في عملية سرية تمت في نهاية أكتوبر- تشرين الأول / 1936، تم نقل احتياطي الذهب الأسباني إلى موسكو، وأذيعت تفاصيل هذه العملية بعد 20 عاماً في كتاب الجنرال السوفيتي الكسندر أورلوف (أسرار كرملين) والجنرال أورلوف هذا كان يعمل في أسبانيا تحت أسم مستعار وهو شفيد، بمنصب رئيس المستشارين للحكومة الجمهورية الأسبانية لقضايا الأمن ومكافحة التجسس، أستلم في أواسط أكتوبر برقية بالشفيرة من موسكو وموقعة من إيفان فاسيليفسكي والذي لم يكن سوى ستالين نفسه، تطلب منه :-

" مفاتحه رئيس الوزراء لارجو كابليرو يشحن احتياطي الذهب الأسباني إلى الاتحاد السوفيتي، ويمكنكم استخدام إحدى سفن الشحن السوفيتية وإحاطة المسألة بالكتمان. وفي حالة مطالبة الأسبان بوصولات، أخبروا أن الوصل سوف يعطى من قبل البنك المركزي في موسكو".

وفكرة نقل الذهب الأسباني (والذي كان بقيمة 600 مليون دولار وهو رابع أضخم احتياطي ذهب في العالم آنذاك) إلى الاتحاد السوفيتي، كانت فكرة الحكومة الأسبانية وحدها من أجل ضمان عدم نهبها والاستيلاء عليها عندما كانت قوات فرانكو تندفع نحو مدريد، بادر وزير المالية الأسباني جان نيجرين Juan Negrin بطرح فكرة نقل الذهب الأسباني من العاصمة مدريد إلى مدينة قرطاجنة، ثم فاتح وزير المالية نيجرين، الذي كان متزوجاً من سيدة روسية، الملحق التجاري السوفيتي ستاشيفسكي المولود في بولونيا، فيما إذا كان ممكناً خزن الاحتياطي الذهبي في الاتحاد السوفيتي، وهذا بدوره أتصل برؤسائه في موسكو وتلقى الإجابة بالموافقة على الفور على ذلك.

وفي أكتوبر وصلت توجيهات ستالين إلى الجنرال أورلوف، تم شحن الذهب إلى ميناء الكامكا كورتا Algamca Gortte بالقرب من ميناء قرطاجنة، حيث كانت البحرية

الأسبانية تستخدمه كمستودع للذخائر والأعتدة وحيث كانت أيضاً السفن السوفيتية ترسو فيها بصورة منتظمة من أجل تفريغ شحناتها. وقد كلف بهذه المهمة الجنرال أورلوف، الملحق البحري، والذي غدا فيما بعد وزيراً للأسطول في الاتحاد السوفيتي وأسمه نيكولاي كوزيتسوف، وكان يعمل بمعيته العقيد كريفو شاين وأسمه السري ميلا . ووضعت تحت تصرفه 20 سيارة شحن مع أفضل عناصره من السائقين ومعهم 60 بحاراً أسبانياً للمساعدة في أعمال الشحن.

وفي ثلاثة ليال من 22 حتى 25 أكتوبر - تشرين الثاني قام هذا الفريق من الرجال بنقل 7800 كيس، كل واحدة منها تضم 65 كيلو من الذهب. وشحنت على متن أربع سفن (ربما لغرض الأمن والتأمين). أما ممثل وزارة المالية الأسبانية كما يذكر أورلوف، والذي التجأ إلى كندا بعد نهاية الحرب الأهلية، فقد أورد وأزبد عندما أمتنع الرجال السوفيت عن تقديم الوصولات كما طالب الأسبان بأن يرافق شحنة الذهب موظف من الخزينة المركزية الأسبانية على متن كل من السفن الأربعة، الأمر الذي تحقق فعلاً. ولكن لم يتاح لهؤلاء الرجال العودة إلى أوطانهم إلا بعد نهاية الحرب الأهلية ولكن بدون الذهب الذي احتفظت به موسكو مقابل ما أرسلته إلى أسبانيا خلال سنوات الحرب الأهلية.

وبعد وفاة وزير المالية (رئيس الوزراء لاحقاً) نيجرين عام 1956 وجدت حكومة فرانكو بين أوراقه الخاصه وصولات من الاتحاد السوفيتي بشحنة ذهب وقدرها 510097592 كيلو غرام من الذهب، فطالبت به الاتحاد السوفيتي. وبعد عدة أشهر أكدت صحيفة البرافدا السوفيتية، أن الذهب الذي شحن من أسبانيا إلى موسكو عام 1936 بما زنته أكثر من 500 طن، إنما كان يمثل ضماناً لسداد الفواتير عن قيمة الطائرات والأسلحة وسائر البضائع الأخرى التي قدمها الاتحاد السوفيتي إلى حكومة الجمهورية الأسبانية التي ما تزال مدينة للاتحاد السوفيتي بـ 50 مليون دولار.

وقد أورد المؤرخ السويسري د. بيتر كوستسوني Dr. Peter Gosztony بعضاً مما توصل إليه من القائمة الدقيقة للشحنات السوفيتية إلى الجمهورية الأسبانية وهي تضم :-

806 طائرة	500,000 سلاح يدوي (بندقية ومسدس)
362 دبابة	15,113 رشاش
120 عربة استطلاع	110,000 قنبلة
1555 مدفع	3,4 مليون قنبلة يدوية
340 مدفع هاون	862 مليون أطلاق

وبرغم هذه الاعتدة هي غير قليلة، بالإضافة إلى 2000 رجل سوفيتي قاتلوا إلى جانب الجمهوريين، ولكن المساعدات الألمانية إلى فرانكو بالسلاح والرجال ثلاثة أضعافها، أما من جانب إيطاليا الفاشية فكانت ثلاثين ضعفاً.

وقد وجد موسوليني بأنه قد ربح صديقاً (فرانكو) في مغامرته الأسبانية، عندما أرسل جيشه في مطلع عام 1937 وأعتقد أنهما سيحتفلان بنصر كبير. ففي مدينة سيفيليا وبالتعاون مع قوات فرانكو وقائدها كويبو دي ليانو خاضت الكتائب الآلية الإيطالية (وكان ذلك أمراً حديثاً في تلك الأيام) ذوي القمصان السود بقيادة الجنرال الإيطالي ماريو رواتاس، هجومياً باتجاه ملقا وهي المدينة الساحلية ذات 100,000 نسمة من السكان، والتي كانت تحت سيطرة الجمهوريين بقيادة كوستا دي زولز.

وابتدأت الهجمات الفاشية بقصف من الجو والبحر في 17/ كانون الثاني وفي 7/ شباط وصلت طلائع الإيطاليين بدباباتهم السريعة التي كانت طائفتها مؤلفة من شخصين فقط، سائق ورامي، إلى ضواحي مدينة ملقا، وبدأ السكان المدنيون بالهرب من المدينة مما أدى إلى نهاية سريعة للعذاب الذي يصعب وصفه، وعندما أتم الفاشست احتلال ملقا، تفجرت أحداث مذبحه كانت أسوء من كل ما سبقتهها.

وكانتقام لمقتل 2500 من اليمينيين الفاشست الأسبان الذين أعدموا في ظل سيطرة الجمهوريين، أعدم المحتلون من الفاشست الأسبان والإيطاليون 400 من الرجال والنساء الذين كان يشتبهون بتعاطفهم مع الجمهوريين وكانت أدنى شبهه كافية لدفعهم إلى محاكم إلى محاكم الطوارئ، وكان يتم اغتصاب النساء قبل إعدامهن بطلقة في الرأس.

ويتذكر الكاتب أرثر كوستلر، الذي أعتقل من قبل الفاشست في ملقا، ثم وجهت إليه تهمة التجسس. وظل في زنزانه الموت في سجن ملقا لعدة شهور، ويتذكر في كتابه " وصية أسبانيا" الساعات الأخيرة لملقا حيث وجهت إليه تهمة التجسس: ..

" عصرأ، بدأت كتائب الفاشست تهاجم المدينة دون تميز للمدنيين، والهجمات الوحشية بددت قوة المقاومة من الميليشيات، وحطمت معنوياتها. وقد علمت لاحقاً أن المدنيين الهاربين على الطرقات، قد لاحقتهم الطائرات الفاشية التي كانت تطير على ارتفاع 80 متراً، والعديد من النسوة اللاتي لأبد أن يواصلن المسير تحت تهديد رماية الطائرات التي كانت تطير فوق رؤوسهن وقد أصابهن مس من الجنون وألقت عشر نساء كن يحملن أطفالهن على أذرعهن، بأنفسهن إلى البحر " .

ويتذكر سائق عربة الصليب الأحمر البريطاني، فور سلي شيلدرن، وهو شاهد عيان عن الحرب الأهلية الأسبانية، صور رمادية عن المدنيين الهائمين على وجوههم:

" صعدت إلى سيارتي امرأة تحمل طفلاً فاقد الوعي وامرأة أخرى كانت مصابة بكسر في ساقها، أعطتني أبنها الميت ليأخذ مكاناً في السيارة وكان ذلك آخر سنتيمتر متوفر في السيارة وقد شاهدت النسوة وهن راكعات في الشارع وكل واحدة تمد طفله لي لأنقذهم".

ويستطرد فرسلي " جميع النسوة ماعدا أثنان منهن كن قد فقدن أزواجهن، أو ماتوا، أو أعدموا في ملقا. ولم تكن الدموع تتوقف عن الانهمار من أعينهن، كن يتمسكن بي ويقبلن أيادي... ماذا نفعل الآن، وماذا سيكون مصيرنا ومصير أطفالنا؟ .. ولم يكن بوسعي أن أجيب على تسائلهن، ولكن الشقاء كان بانتظارهن في الشوارع".

وقد تضمنت الأوامر اليومية للجنود الإيطاليين قبل دخولهم مدينة ملقا " لتسموا قلوبكم، حرابكم واللهب الأسود في ملقا. لقد منحتم أنفسكم للمجد وأعدتم إلى ملقا السلم والحرية والحياة" .

الحرية الجديدة رآها وعبر عنها البريطاني فورسلي:

" لقد قررت أن آخذ معي طفلاً آخر، ولكن الطفل صرخ، ليس بدون أمي، وأستخدم آخر ما تبقى له من قوة وركض نحو أمه، وهدأته ونصحته بأن يذهب معي، ثم أغمي عليها حيث كانت واقفة في الشارع.

ثم تذكرت هذه الكلمات (أرعى أغنامي بنفسي...كلمات للسيد المسيح) يخترق رأسي، ثم وجدت نفسي أصرخ بأعلى ما أستطيع " لماذا بحق الشيطان لا ترعى أغنامك بنفسك، لماذا بحق الشيطان لا تفعل ذلك؟

ولما تم إخلاء الجثث، عادت المدينة المشمسة كما كانت، وأصبحت المكان المفضل لقضاء الأجازات لمحاربي فرانكو وللجنود الألمان في وحدة الكندور. ويكتب طيار القاذفات الألماني غراف هويوس: " في النهار كنا نخرج بسياراتنا الفورد الصغيرة إلى المرتفعات الصخرية حيث الزهور تملأ تلك المنطقة الساحلية من أجل السباحة، وفي المساء كنا نحل ضيوفاً على العوائل الأسبانية التي كانت فتياتهم يعدون من أوساطنا، وهكذا فإن الحياة التي عشناها في ملقا لم يكن بمستطاع احد سوى أصحاب الملايين " .

ومن خلال المحاكمات السريعة والشكلية وجد فرانكو طريقه إلى التخلص من منافسيه وخصومه، فقد أصدر أوامره بإعدام أبين رئيس الوزراء الاشتراكي لارجو كاباليرو بدون محاكمة، كان قد عثر عليه بين معتقلي أنصار الجمهورية " .

وبعد النصر الذي تحقق في ملقا، كان للإيطاليون الكلمة العليا في قيادة الفاشست. فقد تصرفوا في المناطق التي أوكلت إليهم للسيطرة عليها، تصرفوا وكأنهم سلطة استعمارية. ففي مالوركا كان القائد الإيطالي ويدعى أركنو فالدو بونا سيرو، في آب/ 1936 وقد أطلق على نفسه أسم الجنرال غراف الدوروسي، فرض سلطة كانت لها سمعة مفزعة.

وقد أورد الكاتب الفرنسي الكاثوليكي جورج برنان Georges Bernanos الذي كان يحل ضيفاً عند أحد القادة الأسبان الفاشست، أورد في كتابه " المقابر تحت القمر " الأمثلة على بربرية الفاشست :-

" الجديد القادم كان بالطبع أيضاً جنراً لا ويدعي النبيل أيضاً، وأسمه الجنرال روسي، الذي كان يمتطي سيارة سباق ويعتمر قبعة سوداء ويضع صليباً كبيراً على صدره، كان يقود سيارته بين القرى وتتبعه سيارات يصل عددها إلى عشرة سيارات، ورجال مسلحون مثيرين عاصفة من الغبار".

أدخلوني السجن، والجلاد القاتل الذي لا يتجاوز عمره العشرين عاماً قال لي: سنيور، أنزل، أقفز، قف، قتل هذه الأحجية أو أصفر بابهامك ثم طق طق طق، وتسحب الجثة بواسطة خطاف، حيث يجدهم من يتولى مهمة الدفن في اليوم التالي، وهي تقطر دماً، وليكتب رئيس البلدية " فلان الفلاني، مات باحتقان الدم في الدماغ، ليرحم الله البشر " .

وكان الموت يحل أينما حل موكب الفرسان هذا، وطوال 4 أشهر نشر الإرهاب والذعر. وقد أوضحت سيدة من بالميرا أن هذا الطاغية كان "يحتاج" إلى امرأة واحدة على الأقل يومياً في جنة السلام هذه، وقد خلف وراءه ما لا يقل عن 300 قتيل.

وأراد الإيطاليون أن يثبتوا لفرانكو أن بإمكانهم احتلال مدريد أيضاً، ما تم تحقيقه في ملقا خلال خمسة أيام. وهكذا وفي 8/مارس - آذار 1937/ بدأ الجنرال الإيطالي رواتا Roatte الهجوم من جبهة كوادليارا وبإمرته جيوش كاملة تضم 50,000 رجل و 250 دبابة و180 مدفع محمول، وكان العقيد الأسباني موسكار دو (صاحب القصة المشهورة في قلعة الكازار) قائداً للقوات الأسبانية المرافقة.

ومن ضمن قوات الأممية التي كانت تدافع عن كوادليارا، اللواء الإيطالي المسمى بأسم غالبيالدي. فوجد الإيطاليون التقدميون أنفسهم بمواجهة جيش الفاشست الإيطالي على أرض غريبة في قتال ضار وهم المبعدون عن أوطانهم، وهكذا فإن ظروف النضال في الجبهة لم تكن بمواجهة الشرطة والسجن والتصفية الجسدية، هكذا علق الكاتب الألماني غوستاف ريكلر، الذي كان يقاتل إلى جاني الألوية الأممية.

ولما عجزت السيارات العسكرية الإيطالية عن الحركة أمام تراكم الثلوج، قذف المناضلون الإيطاليون من لواء غاربيالدي الجنود الإيطاليون من الجيش الفاشسي، قذفوهم بالمنشورات السياسية بدل القنابل اليدوية، ونادوا في أول حرب ميكروفونات ومكبرات صوت في التاريخ، إخوانهم الإيطاليون في الجانب الآخر :

" أيها المجندون والمرتزقة الإيطاليون وذوي القمصان السود، أسمعوا.... أذهبوا إلى بيوتكم ووطنكم، لا ينبغي لكم أن تموتوا هنا، إنهم يقدمونكم هنا كقرايين للموت في أسبانيا، لماذا تقتلون العمال في بلاد غريبة. تعالوا إلينا، أنكم ستعاملون كأخوة لنا " .

وبالفعل، كان المزيد من الإيطاليون يتركون جيش الفاشست ويلتحقون إلى الألوية الأممية التي شنت هجماتها على القوات الأسبانية وللإيطالية بقيادة المناضل ليستر والمناضل المشهور الكامبيزينو من أجل تطويق قوات الجنرال رواتا. وهنا لجأت قوات موسوليني إلى الهرب، تلاحقهم الأغنية الأسبانية الساخرة " الإيطاليون السريعون" وهي أغنية ذاعت على طرفي جبهة كوادليارا.

والإيطاليون الذين كانوا منذ معركة ملقا شامخي الأنوف على حلفائهم الأسبان، الآن صاروا مدار النكات حتى قيل أن الدبابة الإيطالية تضم اثنين من حركات تبديل (الجير) للوراء وواحد إلى الأمام وتستخدم فقط عندما يكون العدو ورائهم. (المقصود للهرب).

وهكذا تحطمت آمنيات رواتا وخلف وراءه 8000 قتيل وجريح وأسير. وقاد الجمهوريون في شوارع العاصمة مدريد 1500 أسير إيطالي، كما أنهم استطاعوا بذلك تقديم الأدلة والبراهين المقنعة إلى عصابة الأمم في جنيف حول التدخل الأجنبي، أما القوات المسلحة الأسبانية " القوات الجمهورية " فقد توسعت إذ أضيفت كتبية إيطالية جديدة إلى الألوية الأممية يتألف من الجنود الإيطاليون الذين انضموا إلى صفوف المدافعين عن الجمهورية.

في روما، كان موسوليني يغلي ويزبد من الغضب حول مهزلة أبطاله ويصرخ قائلاً " لن يعود إيطالي واحد من أسبانيا بدون أن يتحقق النصر".

هوامش الفصل الثالث

(27) قاتل متطوعون أمميون إلى جانب الثورة الفلسطينية ولا سيما في نهاية الستينات وبداية السبعينات، فكان من بينهم : أتراك، ألمان، فرنسيون، بلجيكي، ومن أمريكا اللاتينية، فنزويلا، ولكن ليس بأعداد ضخمة كما في أسبانيا. المغرب

(28) ثبت لسلطات الجمهورية أن الفاشست، وكذلك المخابرات الألمانية والإيطالية كانت تحاول أن تدس عملائها بين المتطوعين لتخريب صفوف الجمهوريين. المغرب

(29) فالتر أولبرشت : النائب الشيوعي في الرايخستاغ الألماني ورئيس دولة ألمانيا الديمقراطية وسكرتير العام للحزب الاشتراكي الألماني الموحد. المغرب

(30) لا يمكن بسهولة حصر أسماء الشخصيات العلمية التي شاركت في الحرب الأهلية الأسبانية، ومن المقاتلين أيضاً الجنرال هاينز هوفمان وزير الدفاع في ألمانيا الديمقراطية، وعضو المكتب السياسي للحزب الاشتراكي الألماني الموحد، وكذلك الممثل المسرحي والمغني المشهور عالمياً الألماني أرنست بوش، والكاتب السوفيتي الكبير إيليا أهرنبرغ، مؤلف رواية سقوط باريس والموجة التاسعة والعاصفة. المغرب

الفصل الرابع

التناقضات الداخلية تضعف الجمهورية - المعارك الوحشية في المدن
الجمهورية تُلْفِظ أنفاسها

ليس هناك إنسان عبارة عن جزيرة قائمة بذاتها
كل إنسان هو جزء من الكل
إن بقعة واحدة يستطيع البحر أن يمحوها بسهولة
وإن موت أي إنسان ينقص مني شيئاً
لأنني أنتمي إلى الجنس البشري
لذلك لا ترسل أبداً من يسأل : لمن تفرع الأجراس
لأنها تفرع من أجلك أنت
إنها تفرع للأبطال

الشاعر البريطاني
جون دن



خارطة تمثل الموقف العسكري خلال الحرب الاهلية

في معركة كوادليار، مثل نجاح القوات الجمهورية بإحاقها الهزيمة بالجيش الإيطالي، انتصاراً عسكرياً وسياسياً ومعنوياً لها. وكتب مراسل صحيفة النيويورك تايمس مات هيفز حول هزيمة القوات الإيطالية الفاشية على جبهة كوادليار لقد وقع أهم حدث في العالم منذ الحرب العالمية الأولى. إذ استطاعت القوات المعادية للفاشية من دحر الفاشية".

وكتب المراسل الحربي الأمريكي أرنست همنغواي (الكاتب الروائي المشهور) إلى الصحف التي يرأسها حول المعركة بأنها "واحدة من أهم معارك التاريخ العسكري".

مبكراً كان الاحتفال بالنصر من جانب الجمهوريين، بل كان نصرهم الأخير من حيث الأهمية. ولكن هذا النصر أتاح لهم (للجمهوريين) بعد سبعة شهور من المعارك الحربية، فرصة لالتقاط الأنفاس ولكنهم لم يستغلوا هذه الفرصة.

القوى الأسبانية المعادية للفاشية كانت تناهض بعضها بصورة مريرة بل وخاضوا المعارك ضد بعضهم البعض، وكأنهم يقاتلون عدوهم الأوحده ضمن الحرب الأهلية.

وفي الاتحاد السوفيتي كان ستالين ولا يزال (حتى نهاية الحرب الأهلية) يقوم بحملته التطهيرية في الحزب والدولة. والشيوخ الأسيان كانوا الأفضل من بين الفصائل المقاومة ضد الفاشية ضمن القوات الجمهورية، الأفضل تنظيمياً وانضباطاً بدأوا الصراع ضد القوى التي تثير الخلافات بين صفوف الجمهوريين التي كانت متعددة ومتشعبة الاتجاهات: -

- الفوضويين
- الاشتراكيين الثوريين
- التروتسكيين
- المستقلين
- * الاشتراكيين الديمقراطيين
- * الليبراليين
- * المثاليين

ولكن هذه القوى لم تكن تريد أن تنظوي تحت نظام موحد.

وحول هذا الموضوع كتبت صحيفة البرافدا في كانون الأول / 1936 في مقاطعة كاتالونيا وعمليات التطهير فيها التي شملت الفوضويين والتروتسكيين، وإنها ستستمر حتى النهاية وسوف تقدم ذات النتائج التي أسفرت عنها في الاتحاد السوفيتي.

وقد عمل الشيوعيون على تنقية الأجواء وحرص الصفوف بين القوى الثورية الأسبانية واستبعاد العناصر المتطرفة التي كانت تسيء إلى قوات الجمهورية وإلى المناخ السياسي. وفي هذا الإطار تم استبدال رئيس الوزراء كابليرو بوزير المالية نيجرين.

وقد أثار إزاحة كابليرو عن منصبه وهو المعروف باتجاهاته التوفيقية، أثار المزيد من المخاوف لدى الفوضويين الذين اعتصموا في المعازل الجبلية على الحدود الفرنسية وقاوموا قوات الجمهورية، وسقط أعداد من القتلى.

وقد تبع ذلك القتال حول ما أشتهر Telefonica أي بدالة الهاتف في برشلونة عاصمة إقليم كاتالانبا التي كانت تحت سيطرة النقابات المسماة CNT والتي تحولت إلى تعاونية. وكانوا من خلال سيطرتهم هذه ينصتون إلى المكالمات ويقطعونها عندما لا يروق لهم ما يدور من أحاديث. وقد أشتكى العديد من الوزراء والمسؤولين عن الفوضى

في المكالمات الهاتفية التي بلغت ذروتها عندما كان رئيس الجمهورية آسانا يتحدث مع رئيس كاتالانيا، اللذان طلبا حجز إحدى خطوط الهاتف للمكالمات ذات الأهمية بين الوزراء أو بين قادة القوات، فإذا بمأمور البدالة (المقسم) يتدخل في المكالمات ناصحاً إياهم بالعمل الجاد بدلاً من التثيرة....!

وفي 3 / مايو- أيار أمرت حكومة كاتالانيا الشرطة باحتلال بدالة الهاتف، فابتدأ الفوضويون بإطلاق النار واندلعت الحرب الأهلية في برشلونة بين القوى الثورية أدت إلى سقوط ضحايا أكثر من تلك التي سقطت في بداية الحرب الأهلية عندما تمرد الجنرالات في تموز /1936 .

وبدأ الفوضويون والتروتسكيون الذين اعتبروا الشيوعيون من ضمن عناصر الثورة المضادة، يقاتلون الحكومة المحلية في برشلونة، وكذلك عناصر الحزب الشيوعي. وبعد قتال أستمتر أربعة أيام هزم الفوضويون. ولكن على الرغم من تلك الهزيمة، لكن وجودهم لم ينتهي .

كان رئيس الوزراء الاشتراكي كابليرو قد أمتنع عن حل منظمات الفوضويين والتروتسكيين، ومعاقبة قادتهم. وهنا أرغم الوزراء الشيوعيون رئيس الوزراء كابليرو على الاستقالة ليحل محله الوزير نيجرين الذي كان ينتمي إلى الاشتراكيين الديمقراطيين اليساريين، وهو ابن عائلة بوجوازية من جزر الكناري (تقع في المحيط الأطلسي تابعة لأسبانيا) ، درس الطب في ألمانيا، ثم صار أستاذاً في جامعة مدريد، كان يتحدث في منزله مع زوجته الروسية، باللغة الفرنسية، وكان يتحدث الإنكليزية بطلاقة أيضاً، وكان وهو البورجوازي، يتخاطب مع السفير السوفيتي في مدريد بكلمة "رفيق" ويتمتع بنفس الوقت بعلاقات ممتازة مع الشيوعيين ويلتقون على تنفيذ الخط السياسي المشترك.

وبذلك فإن نيجرين كان قد ترك مهمة تصفية اليساريين المتطرفين (الفوضويين والتروتسكيين) إلى الشيوعيين. وكان قد حضر إلى أسبانيا عدد من رجال المخابرات السوفيتية ومنهم زولوتسكي رئيس الفرع الخارجي، ومعه أحد مساعديه وقد صرحوا، "أننا لن نسمح أن تتحول أسبانيا إلى معسكر دولي للعناصر المعادية للاتحاد السوفيتي، والذين تجمعوا من جميع أنحاء العالم، ونحن نعلم كم من الجواسيس قدموا تحت شعار التطوع، وكما لن ننسى إن الفوضويون والتروتسكيون هم شعار التطوع. أننا لن ننسى أن الفوضويون والتروتسكيون هم عناصر الثورة المضادة، وينبغي أن نلاحقهم بلا هوادة حتى النهاية".

وفي غمرة هذه المساعي، تم لقاء القبض على أحد قادة الفوضويين، أندريه نين، وتمت تصفيته رمياً بالرصاص في قصر بارادو بالقرب من مدريد كما ذكر ذلك أحد مساعديه في كتابه "ذراع ستالين الطويلة". (31)

وقد جرت تصفيات أخرى بين الأجانب من عناصر من ذات الاتجاهات. وإزاء تطور الموقف السياسي والعسكري، أمر ستالين بإرسال المزيد من الأسلحة والمعدات الحربية وكذلك عناصر عسكرية كمستشارين. وساد جو من الأنظباط العسكري في القطعات العسكرية الجمهورية وأرتدي الضباط رتبهم على ملابسهم العسكرية وكان النقيب منهم مثلاً يتقاضى راتباً قدره 100 بيزيتا، والجنود 7 بيزيتا.

وعندما عاد الشاب الألماني فيلي براندت وكان عمره آنذاك 24 سنة، من برشلونة، أخبر رفاقه في باريس أن أسبانيا تتجه إلى الشيوعية.

ومنذ القتال في كوادليار، كانت الجبهة تتسم بالهدوء، وبعد هزيمة القوات الإيطالية، ارتأى فرانكو تأجيل الهجوم على مدريد، واتجهت الجهود إلى الشمال، إلى مقاطعة الباسك وأستريا التي كانت تحتلها قوات جمهورية، وهي تمثل مساحة شاسعة من أرض البلاد وكذلك قسماً مهماً من صناعاتها.

وكانت القوات العسكرية الألمانية الكوندور المتواجدة في أسبانيا لخدمة فرانكو، ترغبقوة في محو العار الذي لحق بمعسكر الفاشية من جراء هزيمة الإيطاليين المنكرة، كما ورد ذلك في مذكرات رئيس أركان قوات الكوندور ولاحقاً قائدها وهو العقيد فولفرام فرايهر فون ريشتنهوفن.

استعدت الطائرات المقاتلة والقاصفة الألمانية من طراز يونكر وهينكل للقيام بطلعات مدمرة في الشمال الأسباني، وكان هذا تحضيراً لما سيثير الهلع والفرع في جميع أنحاء العالم.

31 / مارس / 1937 كان يوم السوق في المدينة الباسكية الصغيرة دورانكو، وكانت الكنيسة مليئة بالمصلين، وعندما ابتدأ راعي الكنيسة بإلقاء موعظته، بدأ القصف الألماني الذي أصاب سقف الكنيسة من القذيفة الأولى. وقد أفادت لجنة من الكنائس البريطانية لاحقاً، أن الكنيسة قد أصيبت بأضرار فادحة، كما استخرجت العديد من الجثث من بين الأنقاض وقد مزقتها قوة الانفجارات.

وكانت 40 طائرة قاذفة ألمانية من قوات الكوندور قد اشتركت في الهجوم الجوي الذي أسفر عن : تهديم 3 كنائس ودير واحد، وقتل بين الأنقاض 15 راهبة. وبعد قصف أستمتر ثلاثة أيام متوالية، تحولت مدينة دورانكو إلى مدينة أنقاض، وصرح شاهد عيان بريطاني أن القصف أدى إلى قتل 300 شخص و2500 جريح، ومدينة تحولت إلى أطلال. ولم تكن دورانكو سوى مثال لما هو أكثر قسوة، فقد أخذ الألمان على عاتقهم في توجيه الإرهاب من الجو، وغداً طابعاً لفعالياتهم.

ووحدة الكوندور التي كانت تعد ب6000 رجل مثلت القوة الضاربة في جيش فرانكو وقطعات النخبة فيه وكانوا قليلي الاتصال بالأسبان أو الإيطاليين، ولم يندمجوا معهم، وإلى جانب ذلك كانوا أكثر الجنود احترافاً للمهنة العسكرية وحيثما يزجون (في المعارك) وكانت لهم قواعدهم المقلدة، ولكنهم كانوا يستعينون بطباخين أسبان.

وبالنسبة للنساء الأسبانيات، لم يكن الألمان كإيطاليين، فقد حظر عليهم (من قاداتهم) الاتصال بالسكان ولا سيما بالنساء، فقد كانوا يعتبرون أنفسهم عنصراً راقياً ومنفوقاً. ويذكر أحد عناصر الوحدة الألمانية " كنا نعيش بصورة رائعة، ولكن بلا علاقات أو اتصالات مع السكان المحليين" .

وكان هتلر يبدي الاهتمام بمعنويات جنوده، وهيئة الأركان المعطاة الاسم الرمزي، W كانت ترسل رجال الدين إلى أسبانيا في أعياد الميلاد لإلقاء المواعظ على الجنود. وقد وعظ أحد كارل كيندك وهو رجل دين ألماني: -

"التزاماً وإخلاصاً لخدمة العلم والوطن والزعيم. وبسعادة الوقوف إلى جانب اليمين في تاريخ النضال العالمي ليس كعصاة أو عبيد، وإنما كقوة مسلحة في الجبهات في الحرب المقدسة ضد هؤلاء الذين سيلعنهم الدين والمسيح والصليب " .

وقد جرت العادة أيضاً على تبديل رجال الوحدة الألمانية كل ستة أشهر، أو تسعة، وكانوا يعودون إلى الوطن وقد أصابهم شيء من الثراء، حتى عرفوا واشتهروا بين الناس "محارب في الكوندور" .

وبالنسبة لهرمان غورنغ(قائد سلاح الطيران الألماني)، كانت الشهور الستة، تعد كدورة تدريبية للطيارين الألمان في خوض المعارك وإطلاق النيران، والذين عملوا كمدرسين للأسبان إذ دربوا، حوالي 60,000 أسباني وهكذا فقد تضاعفت مساعدات هتلر لفرانكو، ليس بالسلاح والرجال والمال، بل وبالمدرسين أيضاً.

ووفرت الساحة الأسبانية، أمكانية معرفة فاعلية الأسلحة والقنابل، لا بل أكثر من ذلك، ففي نهاية عام 1936 مجموعة فحص الأسلحة والتكنيك التابعة لوحدة كوندور بتجربة أنواع من قنابلها وذلك بإلقائها على مدينة سيفيلا. ثم حان الوقت لوضع هذه النظريات موضع التنفيذ في مقاطعة الباسك الشمالية وتم تنفيذها بواسطة سرب ريشتهوفن دون الأخذ بنظر الاعتبار بمآسي المدنيين،(32)

وفي 26/ أبريل - نيسان /1937 استلمت الأوامر بمسك الشوارع والجسور، الهدف الجوي كان، مدينة غورنيكا Guernica وكانت الأوامر : تسويتها بالأرض.

وفي الساعة 16,45، الخامسة إلا ربع عصراً، هاجمت الطائرات الألمانية من طراز يونكر 52 وهينكل 111 ومجموعها 43 طائرة، المدينة التي تعتبر مقدسة بالنسبة لسكان مقاطعة الباسك لمدة تقارب الثلاثة ساعات على موجات لكل عشرين دقيقة بالقنابل، والقنابل الحارقة، فتكونت سحابة هائلة من الدخان واللهب فوق المدينة. وما زالت موجات الطائرات تحلق وتقصف، مستخدمة لأول مرة الطائرة Me 109 التي كانت تطلق النار من رشاشاتها على كل ما يتحرك في المدينة.

وغورنيكا التي كانت تضم آنذاك حوالي 7000 نسمة وكان قد أنظم إليهم من مدن وقرى أخرى حوالي 5000 من اللاجئين، قتل منهم 1654 مدنياً وكان ذلك (وقنتئذ) من أسوء ما نجم عنه القصف الجوي في الحروب.

وأستلم طيارو سرب ريشتهوفن التابعين لقيادة وحدة الكوندور الأوامر بالصمت حول مساهمتهم في غورنيكا، والدمار الشامل الذي لحق بهذه المدينة المسالمة من الهجوم الجوي بشهادة القنصل البريطاني ومراسلين أجنب. كما أثار هذا القصف هلع العالم أجمع. وصرح فرانكو أن الباسكيين أحرقوا ودمروا مدينتهم بأنفسهم عند انسحابهم منها وقد رفض فون ريبنتروب وزير خارجية هتلر مذكرة الحكومة البريطانية التي طالبت بدعم دولي للمدينة.

ولكن الحقائق استمرت بالانتشار ثم قادت إلى احتجاجات وتضامن وعطف وصارت غورنيكا رمزاً للأجرام الحربي، ومنحت رسامها الأسباني بابلو بيكاسو المزيد من الشهرة والمجد، غورنيكا التي عادت إلى الوطن الأسباني بعد موت فرانكو.

ولكن هذا لم يمنع من أن يواصل جيش الجنرال مولا تقدمه، وكذلك لم يقلص من فعاليات سرب ريشتهوفن في وحدة الكندور الذين كان قادتهم يتريضون بصيد الماعز الجبلي، فاستمروا بالقصف الجوي بالقنابل والمدافع الرشاشة من عيار 8,8 ملم على المواقع الدفاعية الباسكية حول مدينة بلباو التي سقطت في 19/ حزيران / 1937 وقد قتل وجرح في كافة عمليات احتلال الباسك 35,000 شخص خلال ثلاثة أشهر.

وحتى أكتوبر - تشرين الأول / 1937 حقق فرانكو المزيد من النجاحات في السيطرة على رقع واسعة من الأراضي، عاد الإيطاليون مرة أخرى لتقديم المساعدة وكانوا قد تلقوا الأوامر من روما بإرسال أقصى ما يمكن من الأسلحة التي استولوا عليها وكذلك الأعلام (الرايات).

أما دور الكوندور، فقد أثنى أن يقدر، ويتذكر الملازم الأول الطيار من سرب ريشتهوفن جالاند Galland والذي أصبح لاحقاً رئيس الطيارين المقاتلين عند هتلر قائلاً:

" أنني أذكر أننا وأثناء الهجمات على المواقع الجبلية مقابل منطقة أوفيدو، أننا قمنا ولأول مرة بعمل نوع من "سجادة القنابل" إذ كنا نهجم بأسراب مقلقة ونطلق على ارتفاعات واطئة فوق قمم الجبال. وفوق علامة معينة كنا نقذف قنابلنا، وخطوة فخطوة كنا نراكم تجاربنا، وبالمبادرات الفردية كنا نحسنها ونرسلها بصفحات طويلة إلى برلين " .

وحتى نهاية عام 1937 كان فرانكو قد تمكن من السيطرة على أكثر من نصف مساحة أسبانيا، وبمساعدة هتلر كانت النهاية السعيدة للحرب قد غدت إلى جانبه وتحولت لصالحه، بل أن هتلر كان يرسل المعدات بأكثر مما يحتاجها حليفه الأسباني وفي مارس 1937 تقرر في لندن ما أطلق عليه قرار منع التدخل في الشؤون الأسبانية، كما تقرر تطبيق حصار بحري على السواحل للحيلولة دون أنزال المزيد من القوات الأجنبية والأسلحة والمعدات الحربية لكلا الطرفين المتحاربين، وبالذات الألمان والإيطاليين الذين ساعدوا فرانكو بكل ما لديهم، ولكن الحصار كان أشد على شواطئ البحر الأبيض المتوسط حيث كان يسيطر عليها الجمهوريين.

وكانت البحرية الألمانية قد خصصت لعملياتها في أسبانيا مجموعة من قطع أسطولها، منها دراكتان وبارجة ومدمرة، وعدة زوارق طوربيد كانت تقوم بأعمال الدورية جنباً إلى جنب مع قطع الأسطول الأسباني التابع لفرانكو. وكانت هذه الفعاليات سبباً لقيام القاذفات الجمهورية بقصفها.

وفي 29 /مايو - أيار قامت طائرتان تابعتان للجمهورية يقودهما طياران سوفيتيان بقصف سفينة حربية قبالة شواطئ مدينة أيبيزا التي زعم أنها تعود إلى الأسطول الأسباني التابع لفرانكو، في حين أنها لم تكن سوى السفينة الحربية الألمانية التي تحمل اسم "الدراعة ألمانيا"، فأصاب قنبلتان السفينة وقتل من جراء القصف، 31 بحاراً وأصيب 18 آخرين بجراح.

ويذكر الكاتب الألماني هانز هينك أبندروت في كتابه هتلر في حلبة أسبانيا " أن هتلر أشتعل غضباً لما علم بالحادث، وأراد كرد فعل أولي، إعلان الحرب على الحكومة الأسبانية وكتبت صحيفة "برلين لوكال أنتساكر" وهي تعكس الغضب الألماني: " أن

البولشفيك أكثر البشر انحطاطاً، وأنهم قد غامروا بحياتهم عندما مسوا أبناء شعبنا، لا بل قتلوهم " .

وتنفيذاً لأوامر هتلر، قامت البحرية الألمانية بقصف المدينة الساحلية الميرا، ففي 31/ أيار - مايو قامت الدعاية الألمانية "الأدميرال شير" بفتح النيران من مدافعها عيار 28 سننيمتر عليها، وكان نتيجة هذا القصف 19 قتيل و55 جريح وتدمير أو ألحق الأضرار بحوالي 150 منزلاً.

وأراد رئيس وزراء الجمهورية نيجرين ووزير دفاعه بريeto ، أن يردوا بالمثل بأي وسيلة، وكان رأي وزير الدفاع أن يقوم السلاح الجوي الأسباني برمته بهجوم على الأسطول الألماني، في حين كان رئيس الوزراء نيجرين كان يريد إعلان الحرب على ألمانيا، وكانوا بذلك يأملون ومن خلال نشوب نزاع أوربي الحصول على دعم أفضل من حلفائهم في القارة الأوروبية وبخاصة من الذين كانوا يناصبون ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية العداء. وقد استطلعوا رأي موسكو في هذا الشأن، وقد تولى سكرتير الكومنترن والشيعوي الإيطالي البارز تولياتي Togliati القيام بهذه المهمة، ولكن رأي موسكو كان بعدم المضي في هذه السياسة.

لذلك فقد حاولت الجمهورية أن تحرز انتصاراً مهماً أو حاسماً في ميادين القتال، والهجوم الأول والكبير بدأ مع إطلالة تموز - يوليو / 1937 .

في برونيثا، إلى الغرب من مدريد، كانت القوات المخصصة لهذه المعركة 85,000 ، وقوات الكوندور الألمانية كانت في مقدمة قوات الهجوم الفاشية، وكرأس رمح لها، فيما كان الجنود المراكشيون العاملون في قوات فرانكو، قد تمكنوا، ضمن أعداد من الأسرى، من أسر أوليفر لو وهو زنجي أمريكي يقود الكتيبة الأمريكية المسماة "كتيبة لنكولن" ضمن الأولوية الأممية، والرائد ناتان فيلين وذبحوهم وهما أسيران، وبالمقابل قام القائد الجمهوري الكامبيزينو، الذي كان يقود وحدة من الجمهوريين مؤلفة من 300 من الجمهوريين، قامت بأسر 400 من الجنود المراكشيين، وأطلقت عليهم النار.

وتؤكد تقارير الضباط الألمان أن وحدة الكوندور الألمانية أنقذت الموقف مرة أخرى، فمن خلال التركيز والدقة في القتال، تمكنوا من إنقاذ جبهة فرانكو. ويكتب الضابط الألماني كرونست فون أوفن عن اصطيد (ما وصفه) أعدائنا الحمقى: " عندما ننظر في الأمر ملياً، هدفاً بعد هدف، كان أعدائنا يمشون حاسري الرؤوس في الجبهة المكشوفة: كان إطلاق النار مستمراً، وهناك أعداد من الدبابات، الخيول تركض وحشية هنا وهناك، ورأيت العدو وهو يبحث عن ساتر ليحمي نفسه، كنا نطلق النار من رشاشاتنا ونحن نعلم أن طلقاتنا لا تذهب هباء، وكم كانت فظيعة هذه الهجمات وهذا ما أشارت إليه النتائج".

وبعد أسابيع من القتال الذي كلف الكثير من الخسائر، اشتعلت الجبهة من جديد وحدث كما حدث سابقاً، إذ تمكن طياروا الكوندور من إسقاط طائرات جمهورية كثيرة وتحقق بذلك تفوق جوي لا جدال فيه لصالح قوات فرانكو.

في أراغون، انتقلت المدينة الصغيرة بيلاشيتا مرتين بين الطرفين المتنازعين، وقد عمد فرانكو إلى ترك المدينة على حالها من الأنقاض كدليل على وحشية الحرب الأهلية. ثم

صار لاحقاً بناء مدينة جديدة بالقرب منها سميت "بيلاشيتا الجديدة السعيدة" وكعادته، أتهم فرانكو القوات الجمهورية بالتسبب في تهديمها، وبعد موت فرانكو قام سكان بيلاشيتا بهدم وإزالة ما تبقى من أنقاض المدينة.

ومن أكثر المعارك في الحرب الأهلية سالت فيها الدماء، كان في هجوم الجمهوريين على مدينة تيرويل التي يحتلها الجمهوريين. وكانت جبهتهم ممسوكة بعمق خفيف، وكان فرانكو يخطط لنصر جديد بعد نصر الشمال في كوادليارا إلى مدريد حيث كانت الجمهورية.

في 15 / كانون الأول - ديسمبر/1937 هاجمت قوات فرانكوية يقدر عددها ب 100,000 فرانكوي وحلفائهم المدينة ذات ال20,000 التي كان يدافع عنها 4000 رجل بقيادة العقيد ري دي هيركوت الذي كان يتخذ من دائرة المحافظ مقرّاً له وبات ينتظر هجوم فرانكو الموعود في طقس بارد حيث يرتفع الثلج على المتر وتنخفض درجة الحرارة إلى 18 درجة تحت الصفر. وفي 8 /كانون الثاني /1938 هرب هيركوت الذي نعت بالقائد الجبان من قبل الفاشست، وأعدم من قبل الجمهوريين. وفي القتال الذي دام سبعة أسابيع، استخدم الألمان للمرة الأولى طائرة القتال شتوكا Stuka ، ثم خارت عزائم الجمهوريين، إذ حدث عصيان بين صفوفهم، وأعدم 50 من الجنود الهاربين في يوم واحد.

وصرح القائد الجمهوري كامبزينو، قائد أحد الألوية، أنه حوصر نتيجة خيانة. ومن مجموع مقاتليه البالغ عددهم 900 رجل، ولم يبق على قيد الحياة سوى 82 رجل، وهو نفسه كاد أن يقتل مرتين وقد اخذ معطفه الملطخ بالدماء إلى فرانكو كغنيمة.

كومبزينو بقي على قيد الحياة واسمه الحقيقي فالنتين غونزاليس Valentin Gonzalez، وهرب بعد نهاية الحرب إلى الاتحاد السوفيتي، ثم هرب من هناك حيث أسيئت معاملته إلى الصين، ومنها إلى فرنسا، وحتى أعوام الستينات خاض حرب عصابات مستقلة ضد أسبانيا. في عام 1961 القي القبض عليه من قبل الفرنسيين، وبعد موت فرانكو عاد كومبزينو إلى أسبانيا وكان قد تزوج وأنجب خمسة أطفال وتوفي في مدريد عام 1983 .

كانت نتائج معركة تيرويل 100,000 بين قتيل وجريح وأسير وهي نتائج كارثية للجمهورية وفيها فقدوا القسم الأكبر من معداتهم وتحطمت قوتهم الحربية. وقد منح فرانكو أحد قواده في هذه المعركة رتبة الجنرال، ولم يكن هذا سوى ياغوي المشهور بوحشيته وقسوته، وكذلك نال العقيد الألماني توما بدوره الترقيات المجزية.

وكانت الطائرات الألمانية شتوكا ودبابات العقيد توما والمدافع 8,8 ملم تقمع بقوة أي محاولة مقاومة في بدايتها، وكان جنود المشاة الراكبين في السيارات يسرون يومياً بين 30- 40 كيلومتر ويواكبون زحف الفرانكويين باتجاه البحر الأبيض المتوسط، وفي 15 / أبريل - نيسان /1938 وصلت الفرقة نافارا الرابعة إلى البحر قرب المدينة الساحلية الصغيرة فيناروسز

ويقول الضابط الألماني فون أوفن " الجنود كانوا فرحين ويقفزون كالمهرجين، لقد رقصوا على الشاطئ وقذفوا ببنادقهم في الهواء، وألقوا بأنفسهم في مياه البحر وقد حققوا نصراً مبيناً " .

ويستطرد فون أوفن، أن هذا النصر الكبير كان نصراً حاسماً في الحرب الأهلية وتحقق بفضل مساهمة السلاح الجوي الألماني والجنود الألمان وضباط الأركان الألمان. وكان ذلك هو بداية النهاية، والجمهورية قد قسمت إلى قسمين، وكانت العاصمتين، برشلونة وفالانسيا، تتصلان ببعضها بواسطة غواصة تقوم برحلات مكوكية.

وكان موسوليني قد أدلى هذه المرة أيضاً ببلوه وأمر بقصف برشلونة. وفي غضون يومين من القصف قتل 1300 شخص وألحق دمار شديد بهذه المدينة، وكان موسوليني يتمنى من خلال هذه الهجمات أن يقوي من شكينة جنوده بدلاً من العزف على آلة المندولين، أو من خلال الهجمات الإرهابية كان يريد أن يحسن من موقفه أمام القادة الألمان والأسبان الذين عاشوا وأحبوا هذه الحرب التي خلت من الرحمة والشفقة.

أما وزير دفاع الجمهورية فقد قدر أن كل شيء قد ضاع، لذلك تقدم باستقالته، ولكن رئيس الوزراء نجرين لم يستسلم للأحداث، فتقدم بطلب إلى فرنسا برفع الحصار عن إمدادات السلاح عندما قام هتلر بضم النمسا إلى الرايخ الألماني.

وفي ربيع عام 1938 لم يصدق سكان مدينة فيكوراس القريبة من الحدود الفرنسية عيونهم، قوافل لا نهاية لها من السيارات الشاحنة تنحدر من الشمال، سيارات شحن كبيرة تحمل أجزاء من الطائرات، ومئات من الدبابات تسير في الشوارع، والفرنسيون إلى جانبهم وقد اقتلعوا وقطعوا كيلومترات عديدة من أشجار الأسبندار من أجل فسح الطريق أمام الشاحنات الكبيرة وحمولتها الضخمة.

أكثر من 25,000 طن من المعدات الحربية تم إيصالها إلى إييرو في خلال أسابيع قليلة حيث كان هناك 100,000 جندي من جيش الجمهورية يستعد للقيام بهجوم جديد واسع.

وفي ليلة 25/24 تموز/يوليه، عبرت الكتيبة الألمانية هانز بايملر النهر على جسر عائم أقيم لهذا الغرض ثم لحقت بها أربعة فرق وتمكنوا من إزاحة قوات فرانكو لمسافة 40 كيلومتراً وأسروا 400 منهم، ثم ما لبثوا أن بنوا جسراً آخر، أما فرانكو فقد أذهلته المفاجأة، وبدا أن كل شيء على حافة هاوية الهزيمة، ويقول الضابط الألماني فون أوفن، أن موسوليني عير فرانكو قائلاً: " أن الحمر هم مقاتلين، أما الفرنكويين فلا! "

ومرة أخرى تتدخل وحدات الكوندور الألمانية لإنقاذ الموقف، فقذف الجنرال فولك مان (القائد الجديد لوحدة الكوندور) في المعركة كل ما لديه من القاذفات والمقاتلات والمدافع الثقيلة والخفيفة وحتى بطرية المدفعية المخصصة للتدريب.

ثم تمكن فرانكو من تحضير سبع فرق ليقوم بهجوم مقابل، وفي يوم 2 / آب، أصدر أوامره: " كل من يخسر مساحة من الأرض وإن كانت بمقدار بوصة واحدة عليه أن يتقدم رجاله لاستعادتها وإلا سيعرض نفسه للإعدام رمياً بالرصاص " .

وفي أعلى مراحل الحرج الذي مر به فرانكو، عمد إلى إرسال صديقه التاجر الألماني إلى ألمانيا سائلاً المساعدة: " أن الحاجة ماسة وفورية إلى 120 بطارية مدفعية والتي تتألف أكثر من 500 مدفع وكذلك إلى 50,000 بندقية و200 رشاشة.

وفي برلين ثارت نائرة المارشال غورنغ حول هذه الطلبات المجنونة المضحكة، وهنا طرح بيرنهارد بالمقابل تساؤلاً جعل غورنغ يعيد النظر في موقفه إذ قال: " وهل بإمكاننا أن ندعه يضيع ..؟ " وهكذا تمت الموافقة على طلبية فرانكو الجديدة الهائلة، وحصل على ما يريد من معدات جديدة أكثر وأكبر مما حصل عليها من قبل.

وهكذا وبفضل الدعم الألماني، تمكن فرانكو من قذف قوات الجمهورية مجدداً إلى ما وراء إيبورو، وحيث لم يكن للألوية الأممية وقوات الجمهورية قوات احتياطية. وعلى الصعيد الدولي عادت مرة أخرى ما أطلق عليها "لجنة عدم التدخل" وحرمت إرسال المساعدات إلى أسبانيا، وأغلقت فرنسا حدودها مرة أخرى مع أسبانيا، وكانت فرقتان إيطاليتان تستعدان للدخول إلى أسبانيا لمساعدة الجمهورية، اضطرت إلى العودة وفقدت الجمهورية في هذه المعركة أكبر عدد من الألوية الأممية من أي معركة سابقة. وفي 15/ تشرين الثاني / 1938 زج بما تبقى من المتطوعين الأجانب (الألوية الأممية) في معركة برشلونة 600 رجل يقودهم المناضل الألماني لودفيغ ران.

وفي وداع ما تبقى من الألوية الأممية (30-35 ألف مناضل) في برشلونة، ألقنت المناضلة الشيوعية المشهورة دولوريس إيباروري، الملقبة باسيوناريا، واحدة من أشهر خطبها، كانت تتحدث وسط الدموع التي كانت تفر من العيون، تتحدث إلى مناضلي الألوية الأممية الذين ضحى 20,000 منهم بحياتهم من اجل الجمهورية. قالت وهي تخاطب أهل برشلونه:

" أيتها النساء والأمهات...! عندما ستمر السنين، وتتحول جروح الحرب إلى ندبات، عندما ستتحقق الحرية والحب بين البشر مرة أخرى في هذه البلاد، ستبقى ذكريات هذه الغيوم السوداء وهذه الأيام الدامية المؤلمة، عندما يتحقق يوماً يعتز فيه كل أسباني ببلاده الحرة، آنذاك أخبروا أطفالكم عن تضحيات الألوية الأممية.

أخبروهم كيف قدموا من وراء الجبال والبحار، وعبروا الحدود المحروسة بالحراب وكلاب الدم، من أجل حملة لواء الحرية في بلادنا، لقد منحونا كل شيء، أرواحهم، أوطانهم، ومستقبلهم، لقد جاءوا وقالوا لنا: ها نحن، أن قضيتكم، أسبانيا، هي قضيتنا.

واليوم يذهبون، ولكن آلاف كثيرة منهم سيبقون إلى الأبد هنا، في أرض أسبانيا."

وكان تضحيات الكثيرين منهم قد تحولت حقاً إلى ما يشبه الأساطير الخرافية وقد صنعوا التاريخ، وإن نصف الناجين رفضوا السفر (حوالي 1600)، وفضلوا البقاء حتى النهاية، وجرى تسفير الباقين بأشراف عصبة الأمم.

ومن بين الذين آثروا البقاء: الألمان النمساويون، الإيطاليون، اليوغسلاف، التشيكوسلوفاكيين، الهنغار، لأنهم لا يستطيعون الذهاب إلى إي مكان حيث كانت الفاشية في بلدانهم تنربع على السلطة، أو كانوا حلفاء للفاشية. وقد قضى هؤلاء في المعارك

الأخيرة للجمهورية أو أنهم عبروا الحدود إلى فرنسا حيث وضعوا فيما بعد في معسكرات الاعتقال.

وما تبقى لبيسط فرانكو سلطانه كان عملاً سهلاً، فقد كان لديه في تلك الأيام الأخيرة من الحرب مليون رجل تحت السلاح. أما في مناطق الجمهورية فقد سادت روح الهزيمة والمجاعة، وكان الغذاء الرئيسي للسكان هو العدس.

وفي مدريد، وعندما كان رئيس الوزراء نيجرين يحاول شحذ ما تبقى من الهمم لمواصلة النضال، كانت طائرات فرانكو تسخر من الجمهوريين وتطير فوق العاصمة في استعراض للقوة.

وبحملة تتألف من 300,000 سيطر الفاشيون في كانون الأول/ 1938 وكانون الثاني 1939/ تمكن الفاشست من السيطرة على مقاطعة كتالونيا، وكان المدافعون عن المدينة لا يملكون سوى 17,000 بندقية، والألمان كانوا مرة أخرى في طليعة الجبهة الفاشية.

وحول هذا النصر الجديد كتب قائد الكوندور تقريره:

" كانت مدفعيتنا كالعهد بها في المقدمة، وكانت قذائفها تنهال على الهاربين منهم أو الباقين وتطير فوق رؤوسهم بفاعلية عظيمة. وسقطت برشلونة بدون قتال تقريباً، وكان انتقام فرانكو من الكتالونيين فضيحاً، ففي الأسبوع الأول سيق إلى الإعدام رمياً بالرصاص 10,000 شخص، وبعدها أمر موسوليني بإعدام المزيد منهم، فنفذ الحكم 25,000 شخص آخر. ومنهم كافة الأسرى الإيطاليون، وعبرة موسوليني في هذا الأمر كانت: " الموتى لا يستطيعون الكلام، وأن يخبروا عما جرى !! " .

هام نصف مليون أسباني على وجوههم باتجاه الحدود الفرنسية عبر جبال البيرنيه، كانوا يحملون معهم حفنة من تراب الوطن فحسب. وهناك في فرنسا حيث وزعوا على معسكرات في خمسة عشر محافظة، وحيث لا سقف فوق الرؤوس ولا مرافق صحية، ولا خبز. بل و غالباً الماء لم يكن متوفر. والمعسكرات كانت مسيجة بالأسلاك الشائكة، وكانوا يقيمون الحراسات بينهم.

خلال هذه المسيرة الشاقة المرهقة، توفي شاعر أسبانيا العظيم أنطونيو متشادو، وبلجيكا تقبلت 300 طفل أسباني، لوحات متحف البارادو أخذت إلى عصابة الأمم في جنيف.

وبرغم هذه الصورة الكئيبة، فإن الجمهورية لم تكن قد انتهت بعد. إذ اجتمع القادة المسئولين في 1/ شباط / 1939 في مدينة فيكوراس بما في ذلك الرئيس أتسانا، Ayana ورئيس الوزراء نيجرين، الذي عاد بالطائرة إلى أسبانيا في اليوم التالي وأصدر أوامره بمتابعة النضال والقتال في المناطق التي لا زالت تحت سيطرة الجمهورية وهي حوالي ثلث المساحة الكلية لأسبانيا ويأتمر بأمرها جيش تعداده نصف مليون رجل.

كان نيجرين يراهن على الزمن، كأن تنشب الحرب العالمية في القارة ثم أن يعد على قائمة المنتصرين ويحصل على مزايا المنتصرين، وحقاً ما نقص تلك الفكرة هو بضعة أشهر فقط. ولكن هذا البلد المعذب سيشهد في أول أيام آذار المزيد من الآلام، وحرب

داخل الحرب الأهلية. ففي مدريد قاد العقيد كازادو Casado الذي كان قد لآتصل بفرانكو، التآمر ضد رئيس الوزراء نيجرين الشيوعيين الذين كانوا قد قرروا مواصلة الكفاح. وقد أدت عملية الانقلاب إلى مقتل 2000 شخص في قتال أخوة تجمعهم صفوف الجمهورية.

وفي غضون ذلك، أستحصل فرانكو على اعتراف بريطانيا وفرنسا. وكان يحتاج فقط إلى معرفة كيف ستتهش الجمهورية نفسها وتذهب هباء، إذ كان نيجرين قد عاد طائراً مرة أخرى إلى فرنسا، وجنود الجمهورية انصرفوا إلى بيوتهم، ودخل فرانكو المنتصر إلى العاصمة بدون قتال تقريباً لكي يتمتع نفسه بالانتقام.

مليونان ونصف المليون سيقوا إلى معسكرات الاعتقال والعمل لسنوات طويلة، وهي التي صممت على غرار معسكرات الاعتقال الألمانية وقد أشتهر منها :

Campo de concentration	- معسكر مونسينتراتسيون
Campo de Trabajo	- معسكر تراباجو
Campo de Oca	- معسكر دي أوكا

وقد مات وقتل في معسكرات الاعتقال ما يقارب 100,000 شخص كالعبيد بأيدي المنتصرين، ولكن هناك نصف مليون شخص من المخلصين للجمهورية عاشوا في المهجر سنوات طويلة، و فقط بعد 15 سنة تحت قيادة فرانكو استطاعت أسبانيا التوصل إلى نفس مستوى المعيشة والحياة الاجتماعية التي كانت عليها قبل نشوب الحرب الأهلية.

في مدينة بيريكانتا، كان حتى نهاية آذار /1939 ينتظر 100,000 شخص من أنصار الجمهورية الإنقاذ. ولكن الأسطول البحري التابع للجمهورية كان قد أبحر للإنضمام إلى الفرنسيين في تونس.

وأخذت سفن أجنبية بأجلاء أعداد منهم وكان من ضمنهم (وهذه من سخریات القدر) العقيد كازادو قائد انقلاب مدريد. والعديد منهم أطلقت قوات فرانكو عليهم النار، وآخرون قذفوا بأنفسهم إلى مياه البحر، واقتيد ما تبقى منهم إلى غابة صغيرة من أشجار اللوز وهناك أرغم المعتقلون على إقامة الأسلاك الشائكة لنفسهم بأنفسهم.

فرانسييسكو فرانكو الذي تحقق له النصر الذي كان يتمناه منح نفسه لقب كواديليو Caudillo ، الزعيم، وبأنه يحكم أسبانيا كلها بسلطة الرب، وفي 31/آذار/1939 كانت قواته تسيطر على أسبانيا بأكملها. انتهت الحرب. المنتصر قال للألمان الذين يدين لهم بالفضل :

Sehr gut vielen dank

جيد جداً، شكراً جزيلاً

هوامش الفصل الرابع

(31) يورد سننباغو كاريللو، السكرتير العام للحزب الشيوعي الأسباني(في السبعينات) في كتابه "أسبانيا غداً" الكثير من ملاحظات صراع القوى داخل صفوف الجمهوريين، ويقدم نقداً لجميع الأطراف في تلك المعركة ابتداء من الحزب الشيوعي الأسباني، ويعرض أن التطرف والتعصب، بالإضافة إلى عوامل عديدة قد أدت إلى خلخلة وحدة الموقف الجمهوري.المعرب

(32)ريشتهوفن : Richtthofen : عائلة أرستقراطية في ألمانيا، أنجبت العديد من العسكريين اللامعين أبرزهم المقاتل الطيار مانفرد فريهر فون ريشتهوفن (- 1918 1892)وهو طيار مقاتل فذ أسقط 80 طائرة قبل إسقاط طائرته ومصرعه، وأعتبر بطلاً قومياً وتولى رعم حادثة سنة قيادة أسراب مقاتلات في الحرب العالمية الأولى. أسقط بنيران مقاومة الطائرات، وباسمه تسمى حتى الآن أفضل الأسراب في ألمانيا.المعرب

بدلاً من الخاتمة

د. ضرغام الدباغ

سنحاول في هذا المجال، أن نستعرض بصورة مختصرة ما لم يتطرق له الكاتب، وهو ما نعتبره ضرورياً لأنحاز هذه الدراسة، بل والنتائج الجوهرية للحرب الأهلية، وهو التطور السياسي لأسبانيا بعد الحرب الأهلية حتى وقتنا الراهن.

فبعد أن أستتب لفرانكو السيطرة على أسبانيا، لم تتوقف التصفيات ضد الخصوم السياسيين الذين كانوا يمثلون فئات واسعة وعريضة من المجتمع الأسباني. وكان ذلك يعني بالضرورة أيضاً، أن عملية التطور الاقتصادي في البلاد التي أصابها الوهن الشديد بفعل الخسائر التي أحقتها الحرب الأهلية بالمرافق الاقتصادية، ثم أن استمرار إشاعة الإرهاب كان يعني في نفس الوقت عدم الاستقرار، الأمر الذي يحول دون نهوض اقتصادي مقابل ضعف الهياكل القانونية والدستورية، ومن الطبيعي أن تؤدي محصلة ذلك إلى خلق معوقات حقيقية على طريق التقدم السياسي والاجتماعي والاقتصادي.

حقاً، لقد مضت سنوات طويلة جداً، فقد أحتاج الاقتصاد الأسباني 15 سنة ليستعيد مستواه وقدراته التي كان يتمتع بها عام 1936 ولم يتحقق ذلك إلا في العام 1954، وحتى بعد ذلك التاريخ وبفعل الإرهاب السياسي وقمع الحريات الديمقراطية الذي انعكس على سائر الفعاليات الاقتصادية والاجتماعية، كانت عملية التطور تسير ببطء شديد. أما على الصعيد الخارجي، كان لتحالف نظام فرانكو مع الفاشية الإيطالية والنازية الألمانية، هذان النظامان اللذان أدينا عالمياً، مبرراً في التعامل الحذر مع نظام فرانكو.

انتهت الحرب الأهلية في آذار /1939، والحرب العالمية الثانية نشبت في أيلول /1939 فقد أنقذ الحظ فرانكو هذه المرة أيضاً، فلو نشبت الحرب العالمية قبل ستة شهور فقط، لكان كل شيء في عداد المجهول، ولما نشبت الحرب العالمية الثانية، حان الوقت ليسدد فرانكو فاتورة الدعم الألماني والإيطالي له أبان الحرب الأهلية، ولكن هل كان بمستطاع فرانكو تسديد أية فواتير...؟

لأشك أن هتلر كان قد توصل بمفرده إلى قناعة، أن ليس باستطاعة فرانكو أن يفيد به عمل عسكري فعال. ذلك أن أسبانيا وجيشها لا يمكن الاعتماد عليها في برامج الاستراتيجية الصعبة وحتى إذا رغب فرانكو بنفسه الخيار والاشتراك بالمغامرة، فإنه سيكون مصدر إزعاج لهتلر أكثر من الفوائد المرتجاة، فقد كان موسوليني وإيطاليا عبأً على هتلر، مع أن أوضاعها لا تقارن بأسبانيا البائسة، سواء بدعمها بالقوات كما حدث في حرب صحراء شمال أفريقيا، بل وحتى في الدفاع عن إيطاليا نفسها عندما تعرضت لغزو الحلفاء 1944 أو بدعمها بالأسلحة وبالمواد الخام أو أشكال دعم أخرى.

ففي هذه الحالة أقتصر دور فرانكو على إعلان حياد أسبانيا وإن لم تجهد نفسها وإخفاء تعاطفها مع دول المحور (ألمانيا - إيطاليا - اليابان). وبموجب أحكام الحياد في الحرب، فقد كان لألمانيا سفارة في مدريد تعمل بنشاط بالغ وكذلك في المدن الأسبانية الأخرى التي كانت تعج بعناصر الاستخبارات الألمانية وتنشط دون أن يزعجها أحد، كما كان المحور يستفيد من الموانئ الأسبانية المطلة على البحر الأبيض المتوسط، والمحيط الأطلسي. وباختصار فحياد أسبانيا كان مطلباً ومكسباً لدول المحور.

بيد أن فرانكو لم يكن على هذا المستوى من الحياد بدقة. فقد شاركت فرقة أسبانية (الذئاب الحمراء) التي تم إعلانها كمتطوعين في القتال على الجبهة الشرقية ضد الأتحاد السوفيتي، وفرانكو نفسه قام بزيارة فخمة إلى برلين أستقبل فيها من قبل هتلر استقبال الأصدقاء والحلفاء.

ولابد من الإقرار أن تصرف فرانكو السياسي ينطوي على الدهاء، فهو وإن لم يتنكر لفضل وجميل هتلر وموسوليني عليه، إلا أنه كان يبدو سعيداً وممتناً لقدرة في البقاء بعيداً عن ساحة الحرب العالمية، ومساهمته المحدودة والرمزية والغير رسمية (لم يعلن فرانكو الحرب على الأتحاد السوفيتي) في الجبهة الشرقية لم تكن تزج الحلفاء كثيراً، بل من غير المستبعد أن فرانكو كان قد عرض مفردات موقفه على الحلفاء (الولايات المتحدة - بريطانيا) فحظي بموافقتها بالمضي بها إلى هذا المقدار.

انتهت الحرب العالمية الثانية بنتائجها المعروفة، انهيار واستسلام ألمانيا وإيطاليا الكامل والشامل، واعتقدت الكثير من القوى السياسية في أسبانيا وفي خارجها، أن فرانكو ونظامه سوف لن يسلم من العقوبات أو من العزل السياسي، إلا أن ولحسن حظ فرانكو مرة أخرى، أن نشبت الحرب الباردة بين قطبي السياسة الدولية، المعسكر الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة والمعسكر الاشتراكي بقيادة الأتحاد السوفيتي، فسرعان ما طغت أحداثها وتأثيراتها وتفاعلاتها على غيرها مما أعتبر تفاصيل ثانوية. وقد بدا أن محاسبة فرانكو ونظامه على ذكريات أصبحت قديمة مندثرة، أمراً لا طائل له إزاء المسألة الأساسية المطروحة وهي: عزل وحصر الأتحاد السوفيتي وتأثيراته الأوروبية والعالمية، سياسياً وعسكرياً واقتصادياً، وبهذا الصدد فالولايات المتحدة كانت بحاجة ماسة إلى من يقف معها بقوة في العداوة للمعسكر الاشتراكي، ومن أكثر من أسبانيا الفرانكوية تعلن دون مواربة عدائها السافر للأتحاد السوفيتي.

وإذن، فقد فتحت أسبانيا أبوابها للولايات المتحدة التواقفة للحضور العسكري المباشر في القارة الأوروبية وعلى التوسع بصفة عامة، فحصلت على العديد من القواعد العسكرية في أسبانيا، بما في ذلك تلك المزودة بالرؤوس النووية. ومن جهة أخرى، كانت الفرصة ملائمة لتوسيع حجم التعامل الاقتصادي الذي كانت بداياته قد جرت منذ الحرب الأهلية حينما زودت الشركات الأمريكية جيش فرانكو بالمعدات والزيوت مسجلة أثمانها كديون وقروض، وبالفعل فقد ابتداء الجيش الأسباني بالتزود بالمعدات الأمريكية.

وبرغم الموقف السياسي الجديد الذي بدأت أسسه وصورته تتشكل تدريجياً في أسبانيا، فإن الأمم المتحدة لم تقبل أسبانيا في عضويتها إلا عام 1955 بعد مرور عشرة سنوات على تأسيسها.

بيد أن ذلك لم يكن كل شيء. فنظام فرانكو الذي لم يكن ملكياً ولا جمهورياً، لا رأسمالياً ولا اشتراكياً (وإن كانت قد سادت الأنماط الرأسمالية في الاقتصاد، بيد أن الحديث هنا يدور عن نظام سياسي)، ولم يكن هناك شيئاً من حرية العمل والمعتقد السياسي أو الصحافي، ولا انتخابات بالمعنى الحقيقي لها. وإشراك مثل هذا النظام علناً في سلسلة التحالفات الرأسمالية يعد أمراً معيباً، ويلحق الإساءة العلنية المفضوحة بتلك التحالفات، بالإضافة إلى قناعة جميع الأطراف، أن حل القضية الأسبانية إنما هي مسألة زمن، وهكذا غدا كل شيء مرهون بزوال الدكتاتور. وفي غضون ذلك، بقيت أسبانيا خارج التحالف السياسي العسكري المتمثل

بحلف شمال الأطلسي NATO وكذلك خارج التحالف الاقتصادي المتمثل بالسوق الأوروبية المشتركة.

المجتمع الأسباني بفئاته الاجتماعية، الأحزاب السياسية، النقابات والاتحادات. وفي خارج أسبانيا، كانت البلدان الرأسمالية تنتظر زوال العائق الرئيسي لتكون أسبانيا عضواً في تحالفاته السياسية والعسكرية والاقتصادية، بلدان المعسكر الاشتراكي تنتظر رحيل هذا الرجعي المتطرف والمتعصب من أجل إقامة علاقات سياسية واقتصادية مع أسبانيا الجديدة الموعودة، شأنها شأن سائر الدول الرأسمالية التي تتعامل معها على هذه الأصعدة.

إذن، أسبانيا الجديدة كانت مرهونة بزوال الدكتاتور، وبهذا وحده سيمكن بناء هيكل دولة سياسي واقتصادي واجتماعي يتميز بالاستقرار الداخلي، وبالعلاقات خارجية تعكس مصالح البلاد، وهكذا فإن نظام فرانكو كان قد مات معنوياً قبل سنوات طويلة من موته المادي بزوال الدكتاتور جسدياً، فقد أسبانيا كان ليل طويل، وكان الجميع ينتظر بفارغ الصبر نهايته واختتام مراسم الدفن.

لم أقرأ، ولم أسمع أبداً مما رواه صحفي أوروبي الذي كان يجري عملية استفتاء قام بها عشوائياً في مدريد في أواخر حكم الدكتاتور، وذلك بطرح سؤال محدد، هل تؤيد الجنرال فرانكو؟ فقابل سيدة أرستقراطية بالغة الأناقة والفخامة، ومع أنه كان يقدر أجابته سلفاً.. قالت له: " ليس هنا في محل مكشوف." فاعتقد الصحفي بأن السيدة ستخبره بأشياء رهيبية، ولما أنفرد بها، قالت له بهمس يكاد لا يسمع: " نعم أنا أؤيد فرانكو .."، كان تأييد فرانكو قد أصبح عاراً.... وكان ذلك قبل أن يموت فرانكو ويتفكك نظامه بسنوات.

الجنرال السيمو فرانسيسكو فرانكو، توفي عام 1975 بعد رقدة طويلة على فراش الموت.. وهو في حوالي الثمانين من العمر. وعاد النظام الملكي إلى أسبانيا. أطلقت حرية الصحافة، وحرية العمل السياسي والنقابي، الأحزاب تتنافس ديمقراطياً في الانتخابات البرلمانية، ليفوز الحزب الاشتراكي بأكثرية المقاعد. أسبانيا دولة ديمقراطية تستحق أن يقبل طلبها في الأنضمام إلى حلف شمال الأطلسي، وإلى السوق الأوروبية المشتركة وإن تم ذلك بعد معارضة شعبية شديدة.

هل انتهت المشاكل الأسبانية..؟

كلا بالطبع، فلا زالت المطالبة الباسكية بالاستقلال قوية، بل وتستخدم العنف أحياناً، وما زالت للفاشية جذور في أسبانيا، وقد حاولت القيام بانقلاب عسكري فاشل قاده العقيد توخيرو في شباط / 1981، وهناك قوى سياسية هامة في البلاد تعارض (ديمقراطياً) توجه أسبانيا صوب البلدان الرأسمالية ولا سيما في أنضمامها إلى حلف شمال الأطلسي، ولكن هيهات للمقارنة بين أسبانيا قبل وبعد فرانكو.

ضرغام

الملاحق

- ملحق 1 : بيكاسو ولوحته العائدة إلى أسبانيا
ملحق 2 : لوركا الشهيد البريء للحرب الأهلية
ملحق 3 : ماتشادو شاعر أسبانيا العظيم يموت مشرداً
ملحق 4 : لمن تفرع الأجراس ، رواية أرنست همنغواي على الشاشة البيضاء



الملحق 1

بيكاسو ولوحته العائدة إلى أسبانيا

بابلو بيكاسو 1881- 1973 : رسام أسباني شهير، بل هو أشهر رسامي عصره. ولوحته الذائعة الصيت "غورنيكا" هي واحدة من لوحاته الأشهر والتي خلد فيه عذاب الشعب الأسباني في مدينة غورنيكا الباسكية من جهة، وأبرز وحشية الفاشية الأسبانية والألمانية والإيطالية المتحالفة معها ضد حلم الحرية الأسباني. ولا نبالغ إن قلنا أن لوحة غورنيكا قد ساهمت في التحريض على إدانة عالمية للأجرام واستنكاره.

إن بابلو بيكاسو الذي يعد واحداً من عظماء الفن الحديث الذي يتسم بتعدد مكوناته ورموزه، والتشكلات التي تتضمنها، بسبب ضخامة وعمق الموضوعات التي يتعامل معها، نجح هنا في لوحته العظيمة غورنيكا إذ قدم من خلالها للإنسانية فن راق في خدمة قضاياها الأساسية، وساهم في تعميق ثقافة الإنسان وأهمية السلام في حياة الناس والمجتمع، وتدين بصورة صارخة القمع والاضطهاد وإخضاع البشر بالقوة. إن رموز لوحة غورنيكا وعناصرها تعبر جميعها عن عمق الألم الذي لحق بإنسانية الإنسان.

ويندر أن أحدثت لوحة مثل غورنيكا: نزاعاً حول ملكيتها، وصيرورتها رمزاً لإدانة الدكتاتورية، ويندر أن عاشت لوحة في المنفى ولم تعد إلى وطنها إلا بعد أن تحرر الوطن، لقد تجاوزت غورنيكا قيمتها المادية وقيمتها الفنية، إذ تحولت إلى رمز لموضوع كامل، لمرحلة تاريخية هامة في حياة الشعب الأسباني، بل أن بابلو بيكاسو قد فعل ذلك للإنسانية برمتها في نضالها من أجل السلام. ولا بد هنا من الإشارة إلى أن الحمامة البيضاء المشهورة التي تعد رمزاً للسلام، ما هي إلا عملاً خلاقاً آخر لبيكاسو.

بيكاسو رسم غورنيكا عام 1937، ولا بد أن يكون ذلك بعد تاريخ 26 / نيسان / 1937 ، وهو التاريخ الذي أغارت فيه الطائرات الفاشية الهتلرية على مدينة غورنيكا المسالمة وقصفتها دون تمييز، ودون أن يكون لهذا القصف مغزى عسكري أو استراتيجي، سوى قتل المزيد من البشر، ورسمها بتكليف شفهي من حكومة الجمهورية الأسبانية للمساهمة في المعرض العالمي للرسم المقام في باريس عام 1937 وذلك يعني أنه أنجزها في غضون أشهر قليلة، وهو وقت قصير لمثل هذا الإنجاز الفني الكبير.

وهناك وثيقة صادرة عن سفارة الجمهورية الأسبانية في باريس تشير، أن الرسام قد تلقى مبلغ وقدره 150.000 فرنك فرنسي قديم، وهو مبلغ تافه لا يكاد يعادل ثمن المواد المستخدمة في أنجاز اللوحة من قماش وأصباغ... الخ، ولكن ذلك كان مبرراً لتثبيت فرانكو ومطالبته باللوحة.

إلا أن الموضوع قد حسم لصالح بيكاسو الذي أودع اللوحة في متحف الفن الحديث في نيويورك، وكتب بيكاسو خطاباً إلى إدارة المتحف يعلمها عن رغبته في مصير لوحته بعد وفاته، أن غورنيكا ستعود إلى أسبانيا فقط بعد أن يستعيد الشعب الأسباني حريته، وإليه يعود ملكيتها. وأقترح المحامي الفرنسي رونالد دوماس لتنفيذ هذه الوصية.

غورنيكا عادت فعلاً إلى أسبانيا في تشرين الأول - نوفمبر م 1981 بكل ما تستحقه من مظاهر التكريم، ووضعت في قاعة خاصة في المتحف المدردي الكبير البارادو، في غرفة زجاجية مضادة للكسر والرصاص. ففي أسبانيا لا يزال للديمقراطية أعداء واللوحة كما أسلفنا إدانة للفاشية والدكتاتورية.

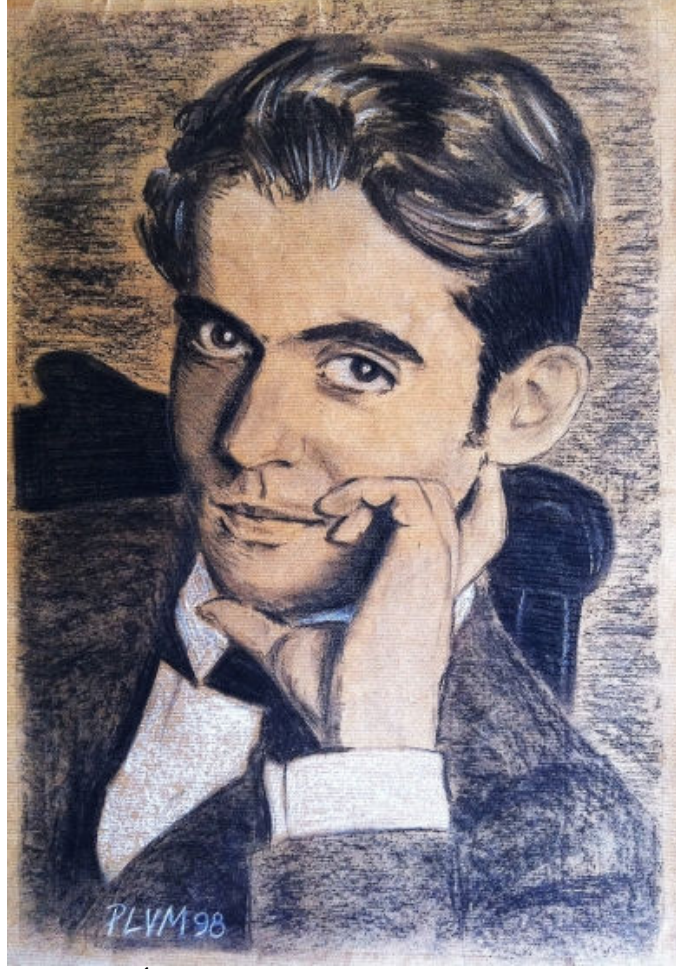
ويوم فتح متحف البارادو أبوابه للزوار، في الساعة العاشرة صباحاً من أول يوم أحد من شهر تشرين الأول - نوفمبر، كان أول شخص يقف في الرتل الطويل الممتد كيلومتراً، كان قد أنتظر لمدة 11 ساعة متواصلة، ليشاهد غورنيكا العائدة إلى الوطن !

كان الجمهور يقف أمام اللوحة التي تختزل العذاب الأسباني، والدموع في عيونهم.. وينتهي زمن دوام المتحف، ولكن الجمهور يرفض مغادرة المتحف، ألم يهدي بيكاسو هذه اللوحة التي لا تقدر بثمن إليهم...؟ رمزاً لعذاب أستم 40 عاماً وهي فترة حكم الدكتاتور فرانكو.

وهكذا، فإن الأشياء ترتبط ببعضها، مات فرانكو، عاش الشعب، أسبانيا بقيت، الشعب أستعاد حريته، غورنيكا لم تمحيها القنابل إنها خلود العذاب الأسباني..!

ضرغام

ملحق 2



لوركا ... الشهيد البريء في الحرب الأهلية

فيدريكو غارسيا لوركا : 1936 - 1898 : ولد في قرية فرينته باكيروس القريبة من غرناطة لأب ثري وأم متعلمة ومن الغريب أن هذا الشاعر لم يستطع النطق حتى الثالثة من عمره ولم يستطع المشي حتى الرابعة.

في سن السابعة بدأ الدراسة وتعلم الموسيقى، وفي عام 1923 أكمل دراسة الليسانس في القانون من جامعة غرناطة.

رحل إلى العاصمة مدريد وهناك بدأ يلفت الأنظار إليه، وعقدت صلات الصداقة مع أبرز شعراء وفناني أسبانيا كالشاعر العظيم خوان رامون خيمينث الذي حصل على جائزة نوبل فيما بعد، مع الرسام سلفادور دالي، والشاعر اليساري رفائيل البرتي والشاعر أنطونيو متشادو.

نشر ديوانه الأول "الأغاني" عام 1927 وحاول تعلم الإنكليزية فلم يفلح، إلا أنه كتب قصائد عظيمة منها، "قصيدة إلى ملك هارلم"، و"ليلية جسر بروكلين" وأقام في جامعة كولومبيا حيث كان يلقي الشعر والأغاني الأسبانية ومحاضرات منها محاضراته المشهورة "الخيال والإلهام والقرار"، ثم محاضراته "أغاني المهدي في الشعر الأسباني". وفي نيويورك كتب

العديد من قصائده التي ستؤلف ديوانه الثالث "شاعر في نيويورك" كما كتب هناك الجزء الأعظم من مسرحيته "الإسكافية العجيبة".

ثم رحل إلى كوبا لإلقاء محاضرات في المعهد الثقافي الأسباني، وأمضى هناك شهوراً سعيدة وكتب فصول من مسرحيته "لما تمضي الخمس سنوات" و "الجمهور" ثم عاد لوركا إلى أسبانيا عام 1933 ثم عرضت مسرحيته "عرس الدم" التي بفضلها غدا الشاعر الأكبر للمسرح.

وفي نهاية عام 1933 سافر إلى الأرجنتين حيث لاقت مسرحياته نجاحاً منقطع النظير. وفي عام 1936 وهي آخر سنوات عمره القصير، فرغ من تأليف مسرحيته "بيت برنارد البا" وأعد مسرحية جديدة هي "تدمير سادوم".

في الرابع عشر من تموز /1936 يعود لوركا من مدريد إلى غرناطة ليحل في دار ذويه، في العشرين منه، يصل التمرد إلى غرناطة يعتقد لوركا بادئ الأمر، أن استقلاله السياسي سيجنبه وحشية الصراع. يسيطر الفاشست على المدينة وبيدؤون حملات التصفية ليس ضد خصومهم السياسيين فحسب، بل وكل من يشتبه بتعاطفه مع الجمهورية.

كان لوركا كان يعتقد أن ملكية أسبانيا غير خاضعة للأبتراز والتصفية، وكان يظن أن عدم أنغماسه في السياسة ستنتجيه، كان يتصور أنه أغنية أسبانية لا تصادر ... كان لوركا بريئاً... بريئاً كطفل !!

في شهر آب وصلت الفاشية إلى بيتهن إلى بيت ذويه، أدرك لوركا خطورة الموقف، ولكن بعد قوات الأوان، كان قد غدا حبيب غرناطة .. يذهب إلى بيت صديق له ينتمي إلى حزب الكتائب .. وفي اليوم التالي 18 / آب / 1936 يأتي فاشيون، ويأخذونه إلى بستان ويطلقون عليه النار، هكذا أعدم شاعر أسبانيا العظيم. وكان لمصرعه دوي في العالم.

الفاشيون والدكتاتوريون يكرهون الأذكيا والعباقرة، فهم يشكلون أرقاً وأزمة نفسية لا حل لها فقد قال برنارد شو مرة: "لا يعرف الأذكيا أي دعر يوقعونه في صفوف الأغبياء" ..

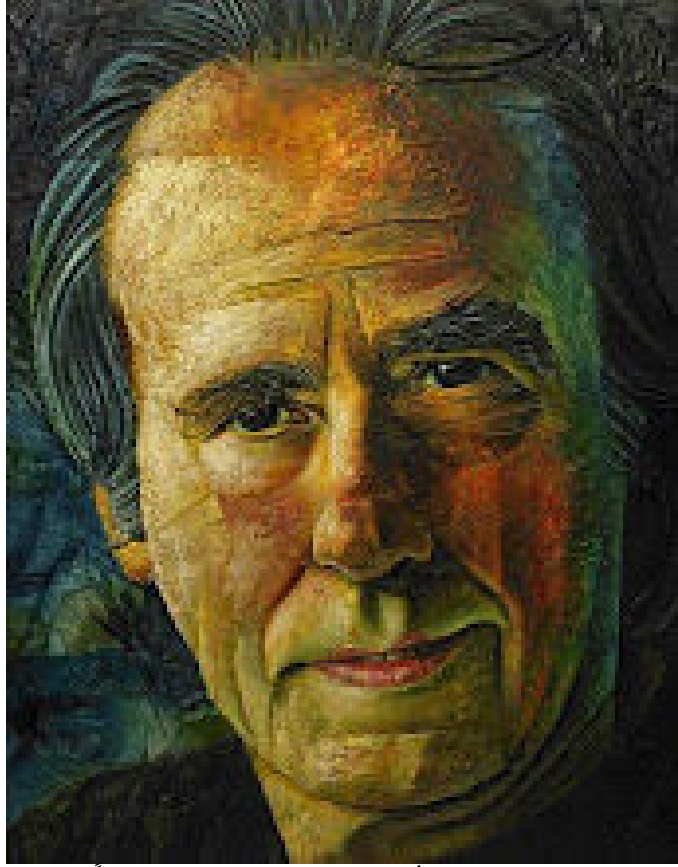
وكان لوركا قد تنبأ بموته بل وإعدامه، وقد وضعنا إحدى قصائده التي يتنبأ فيها بإعدامه في صدر الفصل الثاني، وهنا نقدم قصيدة أخرى من روائعه :-



عندما أموت مع قيثارتي أدفنوني

عندما أموت
أدفنوني مع قيثارتي
تحت الرمال عندما أموت
بين البرتقال
والنعنع
عندما أموت
أدفنوني إن شئتم
في مهب الريح
عندما أموت
خلوا الشرفة مفتوحة
الطفل يأكل البرتقال
من شرفتي أراه
الفلاح يحصد القمح
من شرفتي أحس به
إن مت
خلوا الشرفة مفتوحة

ملحق 3



ماتشادو شاعر أسبانيا العظيم، يموت مشرداً

أنطونيو ماتشادو : 1875 – 1939 : ولد ماتشادو في مدينة أشبيلية لأب مثقف، إذ كان عالماً في الفلكلور الأسباني، ووالدته كانت ذات ثقافة أوروبية وبصرف النظر عن أي من الثقافتين كانت أكثر تأثيراً، فإن ماتشادو تكون شاعراً إنسانياً، مخلصاً لأسبانيا.

وفي سن الثامنة قطن وعائلته في العاصمة مدريد، وتعلم في معهد ذو مستوى ممتاز، وبعكس المدارس الكنيسية، كانت متحررة وتقدمية.

وتفاعل ماتشادو مع الظروف التي مرت بأسبانيا في مراحل اشتداد الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الداخلية، وكانت أسبانيا جديدة في طريقها إلى الولادة. وكتب عن تلك المرحلة شعراً :

أسبانيا تريد أن تبحث
أن تنبثق
أسبانيا كلها تشرع في الحياة
علينا أن نهب للإنقاذ هذا البحث الجديد
لقد أزفت الساعة
فهيا بنا بالفأس والنار
لاستقبال اليوم الجديد.

وفي عام 1899 يذهب ماتشادو إلى باريس حيث يقيم شقيقه مانويل، ويتعلم اللغة الفرنسية ويعمل في الترجمة. ويتعرف على الشعراء والفلاسفة والكتاب أمثالك أوسكار وايلد، برجسون، بولفورت، ثم تعرف على الشاعر روبين داريو، وهو شاعر من نيكاراغوا عاش في أسبانيا وفرنسا، وتأسس مذهب الحداثة وتأثر به ماتشادو بالغ التأثر، وفي تلك المرحلة نشر ديوانه الأول "وحدة" عام 1903 .

وينشر ماتشادو ديوانه الثاني "حقول قشتالة" وأعاد نشره في ديوان "قصائد كاملة" ثم يتعرف على البروفسور الفيلسوف أونامونو وتتعدق بينهما صلات صداقة وينال أعجاب الكثير من الكتاب والفلاسفة والشعراء في ديوانه الثاني والتي يقول في مقدمته " لقد فكرت في أن مهمة الشاعر هي أبداع قصائد جديدة تتغنى بما هو إنساني خالد " . وتتضمن قصائده في تلك المرحلة آلامه بسبب فقدانه لزوجته، وكان ماتشادو قد عاد في باريس إلى وطنه عام 1906 ويتعرف على زوجته ليونور في المدينة التي عمل بها مدرساً للغة الفرنسية وهي تحمل اسماً عربياً "سوريا" ولكن سعادته بليونور لم تدم طويلاً إذ توفيت أثر مرض ألم بها عام 1911 .

وفي عام 1917 يبدأ اتصاله بالقوى الاشتراكية في بداية العهد الديمقراطي، وينشط في هذا الإطار من خلال مهرجانات شعرية، ومحاضرات فكرية .. الخ

ومع إعلان الجمهورية في أسبانيا عام 1931 ، أنتقل إلى مدريد وأنتخب عضواً في المجمع اللغوي الأسباني ولكنه لم يشغل كرسيه بسبب الحرب الأهلية التي اندلعت في المرحلة اللاحقة.

في تموز / 1936 ، نشبت الحرب الأهلية ويقف ماتشادو في مدريد مدافعاً عن الجمهورية أمام زحف القوات الفاشية. وفي شهر آب من نفس العام، يقتل أحد شاعر إلى قلبه، غارسيا لوركا، فيرثيه بقصيدة عنوانها " الجريمة حدثت في غرناطة"

وهو طلسم صامت ساذج،
كانت نظرتة جد عميقة، تكاد لا ترى
حين كان يتكلم، كانت لهجته تنم
عن خفر وعن أنفة معاً
أما قبس أفكاره، فإنه دوماً يرى وهو ينتقد
لقد كان متنوراً عميقاً
كما كان ذا جبلة طيبة
كان يرعى ألف أسد
وألف جمل معاً
كان يوجه عواصف
أو يجلب أقراص شهد
كان ينشد في أشعاره العميقة
غرائب الحياة وروائعها
يتغنى بالحب واللذة
بيد أن سر أشعاره هذه ظل كامناً في صدره
لقد رحل وهو يمتطي عربة

إلى عالم الغيب
لقد شوهد وهو يسير
فأحرتوا أيها الأصدقاء
جثوه من حجر ومن حلم
على جثمان الشاعر في قصر الحمراء
فوق نبع حيث يبكي الماء
وينوح إلى الأبد
الجريمة حدثت في غرناطة
غرناطة.....

وفي كانون الثاني /1936، يهرب ماتشادو من أسبانيا إلى فرنسا وهو مريض وأمه العجوز
تسأله " متى سنصل إلى أشبيلية "، وبعد شهر من خروجه من وطنه يلفظ آخر أنفاسه وهو
يردد آخر بيت شعر نظمه :-

" هذه الأيام الزرقاء، وهذه الشمس ...
شمس الطفولة....."

وأجد من المناسب أن أضيف هنا قصيدة مغناة مشهورة لمتشادو، يكاد يحفظها جميع
الأسبان عن ظهر قلب :-

أيها الطارق

(الطارق، بمعنى عابر السبيل)

أيها الطارق، أثارك هي الطريق
لاشيء أكثر...
أيها الطارق، ليس ثمة من طريق
يتشكل الطريق لدى المسير
لدى المسير يتشكل الطريق
وحين نلتفت إلى الورا
نشاهد الدرب الذي أبدأ
ليس علينا أن نعود فنطأه
أيها الطارق، ليس ثمة من طريق
بل نقوش في البحر...

ملحق 4



لمن تفرع الأجراس: رواية أرنست همنغواي على الشاشة البيضاء

أحداث الفلم تدور عن متطوع أمريكي يناضل إلى جانب الجمهورية ضد قوى الفاشست الفرنكوية ويكلف بمهمة نسف جسر مهم خلف خطوط العدو، وبمساعدة فصيلة من المناضلين الأسبان بضمنهم فتاة، يقع الأمريكي في غرامها.

وهذا الفلم يعتبر الوحيد من نوعه، الذي أنتجته استوديوهات هوليوود في الولايات المتحدة حول الحرب الأهلية الأسبانية، رغم أن كاتب الرواية أرنست همنغواي، وهو أحد أشهر الروائيين الأمريكيين، كان قد عايش أحداث الحرب الأهلية كمراسل صحفي، و قد عبر

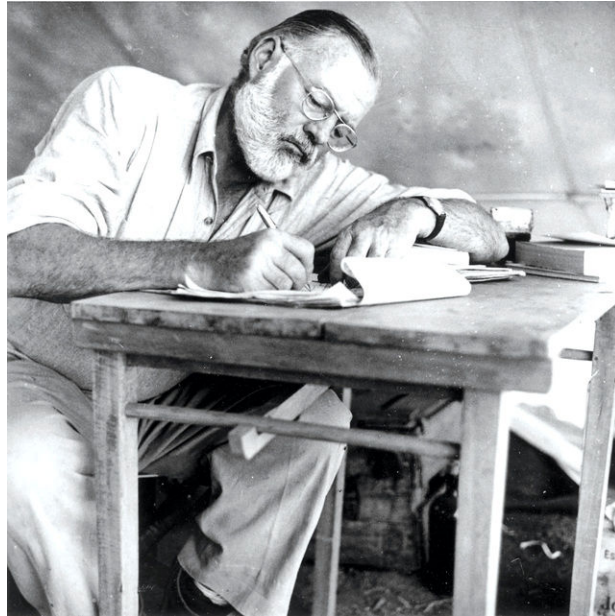
عن عدم رضاه عن الفلم باعتباره لا يعكس الأحداث السياسية التي تضمنتها الرواية
وصور الثوار قساة قلوب وغلاظ الخلق.

والفلم كان قد شارك في مهرجان جائزة الأوسكار وكان النقاد قد رشحوه لنيل 9 جوائز
أوسكار، ولكنه لم يحصل سوى على واحدة منها.

مخرج الفلم سام وود
الممثلون الرئيسيين

كارى كوبر	بدور	روبرت جوردان
أنغريد برغمان		ماريا
أكيم تايمروف		بابلو
كاتيا باكسينو		بيلا
فلاديمير سوكولوف		أنسيلمو
ليوبولكاكوف		الجنرال كولنز

أنتج في الولايات المتحدة عام 1943



الكاتب الأمريكي أرنست همنغواي، المقاتل في الحرب الأهلية الأسبانية، إلى جانب
الجمهورية
وكاتب رواية لمن تقرر الأجراس، حامل جائزة نوبل للآداب